5
الطبعة

محيي الدين اللاذقاني

# نورس بلا بوصلة

رحلات إلى مدن العشق والأسطورة

مدارك

محيي الدين اللاذقاني

# نورس بلا بوصلة

## رحلات إلى مدن العشق والأسطورة

الكتاب: **نورس بلا بوصلة**

تأليف: **محيي الدين اللاذقاني**

التصنيف: **أدب الرحلات**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

**الطبعة الأولى:** (مكتبة مدبولي) 2012
**الطبعة الخامسة:** فبراير (شباط) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-63-4

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

**دبي:**
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178
**بيروت:**
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 009611282075 - Fax: 009611282074

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

# الإهداء

إلى عبدالله اللاذقاني نقيضي وأبي... لم يكن له يد في حبس الجسد ولم يطلب منه أحد أن يضاعف فاعلية زنازينه ومعه. فقد أمضى عمره الطويل بين المحراب وزيزفونة الدار متعبداً متأملاً، ثم رحل دون أن يخبرني أيهما أعمق وأسرع لمرقاة تحرر الروح، التجذر في قرية سورية صغيرة أم رفرفة أجنحة النوارس في العالم الشاسع بين الأمواج والأعالي...

# المحتويات


رفة جناح قبل الإقلاع ..... 9

1 – رودس جزيرة القراصنة والفرسان ..... 15

2 – كريت هبة زيوس وقدموس..... 33

3 – استانبول... عميان حول الحرملك..... 41

4 – فيينا بعد أسمهان ..... 59

5 – جسر التنهدات في البندقية ..... 67

6 – ابتسم أنت في دبلن ..... 75

7 – سترانفورد مسقط رأس شكسبير ..... 83

8 – أدنبرة بين القلعة والمهرجان ..... 91

9 – نيويورك... عصابات وشعلة حرية ..... 103

10 – ليالي الأنس في هافانا ..... 111

11 – تجليات من قمة هرم مكسيكي ..... 129

12 – قيروان سيدي عقبة ..... 145

13 – ابن الخطيب في فاس وسلا ..... 155

14 – حراطون في شنقيط ..... 171

15 – لصوص بغداد ورهبانها ..... 181

16 – بصرة الشعر والنخيل ..... 191

17 – نفحات من القدس العتيقة ..... 199

18 – مدن الأوهام والمخيلة ..... 207

# رفة جناح قبل الإقلاع

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه... قالها الإمام الشافعي فقيه الرحيل الجميل بلهجة الأمر لا الترجي أو دراسة الاحتمالات لاختيار أفضلها، وكان يدرك تماماً أنه ليس من الضروري أن يكون السفر عزاء وسلوى، فهو وقبل كل شيء متعة رؤية ورؤيا –بالألف والتاء المربوطة– ولذة تحقق المستحيل ودهشة المفاجأة والاكتشاف، وقبلها جميعاً تحدي سلطة المجهول، ذاك الذي يربطنا بالذعر، إلى المعلوم والعادي والمملول منه حتى الثمالة. في السفر يقاوم الإنسان احتمال التحول إلى مستنقع، ويبحث عن نضارة التجدد في ارتياد الآفاق مقتدياً في هذه الأمثولة بآية الماء:

**إنـي رأيت وقـوف الماء يفـسده**

**إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب**

ولأمر لا يصعب التكهن به بدأت معظم الملاحم والأساطير العالمية من ضياع مقصود أو سفر خلف حلم منشود، فقد انطلق جلجامش براً من أوروبا بحثاً عن عشبة الخلود، وتاه يوليسيس في البحار عمراً وهو يبحث عن إيثاكا، فلما وجدها وفيها بينلوبي حن إلى «ضياعه» وأدرك أن الدرب غايته لا المدينة ولا الجزيرة.

في التراث العربي يبكي الناس إلى اليوم غربة على بن زريق البغدادي ويسهرون مع تغريبة بني هلال، ويدركون من خلال سيرة عنترة أن الرجل لا يصبح بطلاً يليق بأجمل النساء إلا بعد أن يسافر طلباً لنوق حمر أو صفر، وما الإبل قصدهم ولا الأعراس بل حكايات مقارعة المجهول والمستحيل أثناء السفر.

وما بين غربة وتغريبة وتيه مقصود او حلم منشود تتراكم أساطير الكشف، وأغاني الرحيل، وقصائد الحنين، وقصص النجاح والفشل والحب والحرب واللوعة والنشوة، لتجعل من أدب الرحلات وإعادة تفسير رموز الأساطير مادة من أكثر المواد مقروئية في الثقافة العالمية، فمن لا يرحل بالجسد يريد أن يرحل بالروح، وكم في بلادنا وبلاد غيرنا من بلبل أسير وحمامة مقيدة ومطوقة، ومريض تقعده العلة وتمنعه عن الحركة الطبيعية. لكن روحه تظل محلقة بكل ما يليق بالروح من توق الكشف والتسامي، وهؤلاء جميعاً يجدون في واحات الأساطير وكتب الرحلات والسفر ضالتهم وجناحهم وعكازهم وبوصلتهم وكاميراتهم اليابانية التي صارت عنواناً مضحكاً للسفر السريع المبرمج بدقة تفقد الرحلة نصف طعمها...

لقد رحلت دوماً مثل النوارس دون دليل سياحي ولا بوصلة، واستمتعت بالضياع بذات الدرجة التي توفرها متعة التعرف على قديم الأوابد وجديد المعالم، وفي الحالتين كنت أتساءل: لماذا تخلو المكتبة العربية الحديثة من ثقافة الرحلة؟ فالكتب المؤثرة من هذا الطراز معدودة على أصابع اليدين، وما تبقى لا يغني من ينظر للسفر كثقافة روحية عميقة ويتوقف عند حدود الطبيعة ومواعيد القطارات والطائرات والقوارب.

إنها ثغرة حقيقية في المكتبة العربية كنت أتذكرها كلما عبرت قصداً أو صدفة في إحدى مدن التاريخ والعشق والأسطورة. لذا أكثرت من هذه الكتابات. فالروح الحرة للنوارس تفيض كالأنهار، لأن تلك طبيعتها، وعشاق الجمال الأصيل والحميم حاتميون في رغبتهم في البحث عمن يقاسمهم تلك المتع المقطرة والصافية التي ترافق كشوفات العقل وكشف العيون، واستجابات الروح الهائمة في ملكوتها.

لقد قيل كثيراً إن الأسطورة طفولة العقل البشري، ولأن الطفل فينا يرفض أن يكبر، يظل البحث عن الدهشة معرفياً وعياناً كامناً في أعماق كل كائن بدرجات متفاوتة...

لقد سافرت بالجسد إلى معظم المدن التي حملت عبق التاريخ والأسطورة وصارت عنواناً لبراح العشق وكنوز المعرفة، وكان يتعذر السفر إلى بعض المدن لأسباب بعضها معروف والأكثر مجهول. فالقدس، التي نسري إليها روحاً، ما استطاع أبناء جيلنا أن يزوروها نظراً للصراع العربي الصهيوني الذي سطر على تاريخنا الحديث لما يزيد على نصف قرن، والعراق بظروفه المعروفة وتداوله حديثاً بين الطغاة والغزاة جعل من المتعذر زيارة مدنه الأساسية التي شهدت طفولة العقل البشري وصارت أعشاشاً دافئة لما لا يحصى من الأساطير...

وكذلك الحال مع أقطار عربية عديدة وضعتنا على اللوائح السوداء. لهذا السبب أو ذاك فلا أحد يطيق الكلمة الحرة والعقل النقدي الذي يعمل بميثاق شرف الجراحين، ولا يشهر مبضعاً إلا ليعالج أو يداوي...

وإني إذ أسوق هذه الحقائق، فإنما أعتذر سلفاً لأنه ليس في هذا الكتاب حرف عن المدن السورية العريقة التي درجت على ترابها الأسطورة وولدت فيها الأبجدية، وكذلك الأمر مع مدن عربية كثيرة من مدن العشق والأسطورة حال حكامها بإغلاقهم الحدود أمام دخول أسماء بعينها عن الوصول إليها، وهكذا اكتفينا مرحلياً بالإسراء الروحي إلى مدن نحبها بانتظار أن يزول الكابوس، ويصبح حق السفر والمعرفة مكفولاً للجميع في بلاد حنت على الأساطير وناغشت الأسطورة حين كانت في مهدها تحبو...

ومع الاعتذار أعد على سبيل التمني أن يكون هذا الكتاب بداية سلسلة أستكمل في المرحلة الثانية منها ما نقص، فأعود مثلاً إلى مرابع جاري أبي العلاء المعري الذي لا تبعد قريته «معرة النعمان» عن قريتي «سرمدا» إلا مسافة قصيرة جداً. وإلى بعض العواصم التي أهملتها قصداً لوفرة تداولها في أدبيات الصحافة.

وإلى «سرمدا» التي ولدت فوق ترابها، وهي قرية صغيرة في شمال سورية يعود الفضل في تشربي لروح الأسطورة وابنها الشرعي عبر التاريخ، فقد ترعرعت في القرية التي رسا قربها قارب نوح عليه السلام فوق جبل أررات بين مغارات حيثية وأبراج رومانية وأعمدة بيزنطية، في تلك الثغورٍ التي تصارعت عليها جميع الحضارات ورحلت، وظل المكان مشعاً بروحه التي لم يمسسها سوء.

وحيث انتقلت إلى حلب وجدت نفسي أيضاً في مدرسة الكواكبي على قمة جبل الجوشن الذي كان يسامر عند سفوحه سيف الدولة المتنبي، فلما غادرتها إلى مدرسة هنانو صرت قرب قلعة حلب التي شهرت آخر تجليات السهروردي.

وبهذه المعاني كلها ما كان التاريخ وشخصياته وأساطيره بالنسبة لي كلمات في كتب، بل جزء حي من الواقع المعيش، ونسيج المكان وروحه القادرة على التناسل والانتقال من جيل إلى جيل، ومن روح إلى وريثها.

هذا الكتاب ليس رحلات جغرافية فحسب لأغراضٍ السياحة في البلاد، إنما وردة محبة للعباد، واسفار روحية بحثاً عن الجذور والمعرفة وجوهر الهيولي.

لقد كنت أرى المدن من خلال قصص الحب وأشعاره أكثر مما أجدها في وثائق الحروب والكراهية، فالسفر كالضياء فعل محبة يشرق داخل النفس لينير الزوايا المعتمة، وبذا تتلاقى وتتلاقح في لحظة ما في مكان ما مشاهد البصر مع تجليات البصيرة.

إن هذه المقدمة مجرد رفة جناح قبل الإقلاع، تفتح لكم باب الكتاب على أمل أن تستمتعوا مثلما استمتع النورس بزيارة مدن العشق والأسطورة...

**محيي الدين اللاذقاني**

برايتون- يناير (كانون الثاني) 2004

# (1)

# رودس جزيرة القراصنة والفرسان

«الحب ابن حرام» هكذا أصله في أساطير الإغريق، فكيوبيد ثمرة شهوة محرمة نتجت عن لقاء مارس بفينوس زوجة شقيقه الحداد فلكان التي تجدها بمائة اسم وألف صفة ومليون تمثال أشهرها «أفروديت المستحمة» الذي تجد نسخته الأصلية في متحف رودس الذي يباهي به الأمم. وحقاً، فأفروديت المستحمة المنحوتة من المرمر الأبيض بأعكانها اللدنة وصدرها العاجي الواثب –المتوثب غزالة حقيقية بشعر يرفرف كسحابة الربيع وعنق خلق للقبل، وقد أراد التمثال أن يظهر مفاتن ربة الفتنة كلها فجعل ركبتها اليمنى ترتاح على مرمرة مدورة بينما اليسرى ترتفع قليلاً لتسند الذراع البض وتحيل المثلث الواحد إلى سبعة مثلثات مركزها جميعاً سرة تكاد تنطق وتنشر الدفء مع أنها من بارد المرمر!

وليست أفروديت وحدها في رودس، فقد كان عند هذه الجزيرة تمثال اعتبره القدماء من عجائب الدنيا السبع مع منارة الإسكندرية وحدائق بابل المعلقة وغيرهما من عجائب العالم القديم، وقد نسفت الزلازل ذلك التمثال، ثم تم تحميل العرب واليهود مسؤولية فقدان ما تبقى منه بعد الزلزال، فقد جمع العرب المؤابيون حيث استولوا

على الجزيرة بحدود عام 653 بقايا البرونز من تمثال «كولوسوس أوف رودس» وباعوه لليهود.

والملاحظ هنا أن الأدبيات الغربية كانت قبل الصراع العربي -الصهيوني توزع جرائم تدمير الحضارة بين العرب واليهود، فلما بدأ ذلك الصراع صار العرب وحدهم مسؤولين عن ضياع بقايا إحدى عجائب العالم. مع أن تلك الجزيرة لا تشكو ولم تشكُ أبداً من قلة الغزاة والمدمرين، فالأتراك وحدهم احتلوا رودس لفترة تزيد عن أربعة قرون، والإيطاليون الذين سيطروا عليها في القرون الوسطى ولم يبيعوا بقايا تماثيلها فحسب، بل باعوا الجزيرة كلها لجمعية فرسان القديس جون عام 1306م، وقد وقع عقد البيع الأدميرال فينيولي، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت رودس القاعدة الصليبية المتقدمة التي يتجمع فيها الأوروبيون قبل الهجوم على الأراضي المقدسة. فريتشارد قلب الأسد مر من هناك واستراح وأراح جنده عند فرسان رودس الذين قسموا الجزيرة إلى سبع ثكنات حسب الألسن الوافدة إلى ذلك الموقع الاستراتيجي المتقدم الذي يتحول دوماً إلى عبء على أصحابه، فقد تم تدمير رودس عشرات المرات، وفي كل مرة كانت تنهض كالفينيق من رمادها ومعها إرثها العريق المتنوع، فهي من الجزر القليلة التي يمكن أن تجد تحت كل حجر فيها أسطورة.

وعلى ذكر الفينيق والفينيقيين فهذه الجزيرة تعترف بفضل قدموس الفينيقي الذي جلب لها ولبقية جزر اليونان الأبجدية حين انطلق يبحث عن أخته أوروبا التي اختطفها زيوس وأخفاها في جزيرة كريت، ومكافأة له على ذلك الصنيع أعطاه مجمع الأولمب مأثرة بناء

مدينة «طيبة» التي سيدخلها أوديب لاحقاً ويحل لغزها الفينيقي المعلق على بابها منذ أيام قدموس.

لقد احتاط صانع الأسطورة الأصلي للمجد القومي الإغريقي، فقضى على كل الذين أتوا مع قدموس من فينيقيا، وتركه وحده ليبني طيبة برجال نبتوا على أرض اليونان، فعندما ذهب قدموس إلى كاهن دفلي ليسأل عما يتوجب فعله، نصحه أن يتوقف عن البحث عن أخته أوروبا، فهي في مكان آمن، وأن يعمل على بناء مدينة عظيمة ستدله على موقعها بقرة بيضاء، ما عليه إلا أن يتبعها، فهي مأمورة ولن تقرفص إلا في المكان الذي اختارته الآلهة لبناء تلك المدينة العظيمة.

وبعد أن جلست البقرة وتمت التضحية بها بعد قيامها بمهمتها المقدسة في تحديد الموقع، ذهب قدموس يتفقد رجاله فوجد أن تنيناً ضخماً قد افترسهم جميعاً عند النبع، وعند هذا المفصل ينتهي دور الشرق في المساعدة على بناء حضارة الغرب، ويبدأ الغرب وحده في الاضطلاع بالمهمة، فقد ظهرت أثينا لقدموس وطلبت منه ألا يقلق لموت رجاله لأنها ستزوده بمن هم أحسن منهم، وما عليه إلا أن يزرع أضراس التنين الذي فتك بهم انتقاماً لأصحابه في الأرض وسوف يرى العجب.

وفي المشهد التالي من الأسطورة تتأكد شامية قدموس –أو لبنانيته كي لا يزعل سعيد عقل– لأنه استطاع أن يشعل حرباً أهلية خلال دقائق، فما أن نبتت أسنان التنين وتحولت إلى فرسان ظن قدموس أنهم سيهاجمونه حتى تناول حجراً ورماه بينهم فصار كل واحد منهم يتهم الثاني برمي الحجر واقتتلوا حتى أفنوا بعضهم

البعض، ولم يبقَ منهم غير خمسة هم الذين ساعدوا قدموس على بناء طيبة.

إن أثينا الحكيمة بنت زيوس التي ولدت من رأسه بضربة ساطور من أخيها الحداد، ورعت مشروع قدموس في بناء طيبة، تتقاسم مع أبولو كافة المعابد الوثنية في رودس، فقد تركت لأبولو معبد العاصمة وذهبت إلى الضواحي. وأشهر معابدها في تلك الجزيرة الساحرة فوق قلعة لندوس، وقد أقيم على رأس قمة صخرة يزنرها البحر، وما يزال صامداً بعد خمسة وعشرين قرناً ليذكر البشرية بذلك الزمن العجيب الذي اختلطت فيه شؤون الآلهة والبشر.

ومع الاعتراف بأفضال أثينا، تعتبر رودس نفسها منحة «أبولو-إيليوس»، ففي بدايات نشوء الميثولوجيا اليونانية وزع زيوس الكون بين أولاده، وكان أبولو صاحب مركبة الشمس غائباً في رحلته اليومية، فلما عاد وأدرك الوالد أنه نسي ابنه المُشرق الدافئ من التقسيم، أراد أن يعيد القسمة، لكن الابن البار قال إنه سيكتفي بجزيرة عذراء وسط البحر، فكانت من نصيبه رودس التي تفاخر بأن الشمس تشرق فوقها ثلاثمائة يوم في العام، ولبعض مدن الجزيرة العربية أن تفاخرها، فهناك تشرق الشمس 365 يوماً، لكن لا توجد مدارس علمية وفنية لأسطرة الشمس والاستفادة منها في مجال الطاقة كما يجري في رودس، التي تجد فوق كل سطح منزل فيها جهازاً لتحويل أشعة الشمس إلى كهرباء. وقد أقيمت عجيبة الدنيا السابعة، تمثال «كولوسوس أوف رودس»، لتكريم أبولو راعي الجزيرة وحاميها، وكان ذلك التمثال حسب مشاهدات كاتب روماني من القرن الأول قبل الميلاد اسمه بليني، يزيد

ارتفاعه عن الثلاثين متراً، ويمكن أن يتسع صدره لاثني عشر فارساً بخيولهم، وعلى طريقة ربة الصيد ديانا كان يضع قوسه على صدره وجعبة سهامه على كتفه ويحمل الشعلة المقدسة فوق رأسه، وكانت السفن تدخل ميناء رودس الذي يحمل حالياً اسم ماندراكي من بين ساقيه المنفرجتين.

وعلى قاعدتي التمثال في مدخل الميناء هذه الأيام تربض غزالتان، فأهل رودس يقدسون الغزلان ويحبونها ويعتبرونها هدية الأولمب للجزيرة التي كانت من كثرة أفاعيها تسمى جزيرة الأفاعي «أوفيوزا»، فلما ضج أهلها بالشكوى وذهبوا إلى دلفي نصحتهم بيثيا أن يذهبوا إلى فورباس لأنه الوحيد القادر على مساعدتهم. واستجاب فورباس الشهم وأرسل لهم كوكبة من الغزلان ما أن رأتها الأفاعي حتى لاذت بحجورها، ومنذ ذلك التاريخ القصي الذي وضع في الذكر رمزين للأنثى –الغزالة والأفعى– في مواجهة بعضهما البعض تراجعت أسهم الأفاعي ككائنات مقدسة، وصارت الغزالة رمزاً وطنياً في رودس، وكان اختيارها للحلول مكان عجيبة الدنيا السابعة حلاً منطقياً، فكل قوم يفاخرون بما يحبون، وهل أحلى من أن تفاخر الأمم بغزالة شاردة؟!

ولم يكن خوف أهل رودس من الأفاعي وحدها. فالهاجس الثاني عندهم كان القراصنة، وهؤلاء لا تخيفهم الغزلان ولا الأفاعي، وليس عند بيثيا أو فورباس أي حل سحري لهم. لذا كان الحل العملي الأمثل هو الابتعاد عن الشواطئ، فالكثير من قرى الجزيرة بنيت خلف تل أو في حضن جبل يدير ظهره للبحر. وأشهر ضحايا ذلك النظام الجائر

من العمارة قرية «أفندو»، ومعناها كموقعها «اللامرئية»، وهي في مطلع القرن الحادي والعشرين من المنتجعات المرموقة، وتقع بين ردوس ولندوس، وعلى بعد أميال منها نصب عذراء اللهب في دير على قمة جبل تقصده النساء العواقر من كل جزر الإغريق فيرجعن حاملات. وحين تصادف في اليونان عموماً مَن اسمه ثامبيكو أو مَن اسمها ثامبيكا تتذكر الخرافة الشعبية التي لها بعض المصداقية، وتعرف على الفور أنهم ولدوا بعد زيارة أمهاتهم لعذراء اللهب المقدس ذات الطقوس الصعبة. فالمرأة العاقر يجب أن تتنسك وتعتزل وتغتسل ثم تصعد الجبل حافية القدمين وتبيت ليلة عند القمة وهناك يأتيها الفرج. كيف؟ لا أحد يدري.

وعلى مقربة من قرية «أفندو» اللامرئية صوَّر أنتوني كوين فيلم «مدافع نافارون» التي قيل إنها كانت مخفية في كهف جبلي هناك، ثم عاد ليصور بضعة مشاهد من «زوربا اليوناني»، فلما صار محبوب اليونانيين بعد ذلك الفيلم أقنع الحكومة اليونانية بأن تمنحه أرضاً في الموقع الحالي لنادي الجولف. ووعد بأن يجعل من ذلك الموقع هوليوود أوروبا، وقد وافقت الحكومة ومنحته الأرض وأصدرت له التراخيص القانونية المطلوبة، لكنه خرج ولم يعد ثم مات وظلت هوليوودِه حبيسة الأدراج والأراضي التي أقطعت لها محجوزة باسم زوربا المكسيكي الذي كان فاتنا بالفعل في دور زوربا الإغريقي الذي يقدم النسخة المعاصرة لشخصية تلك البلاد المكتظة بشبق الحياة والمولعة بلعبة القضاء والقدر، والتي تقرأ الفلسفات كلها فلا يقنعها غير أبيقور فيلسوف اللذائذ المؤلمة الذي يظنه البعض خطأً فيلسوف المتع السهلة.

لقد لاحظ كازنتزاكي، مؤلف زوربا، خلال زيارته لمصر عام 1927 أن الفراعنة كانوا يضعون صورة تابوت على المائدة كي يلجموا أنفسهم عن الانغماس بالشهوات ويفكروا في الأبدية، لكنه فعل حسناً ولم يتعلم الدرس، فخرج زوربا من تحت ريشة قلمه الخصب شهوانياً حتى العظم، وعدمياً إلى أقصى حدود العدم، ولعله حاول إصلاح ذلك لاحقاً في «الإغواء الأخير للمسيح» لتحقيق بعض التوازن.

إن نيكولاس كازنتزاي ابن كريت جارة رودس هو بشكل أو بآخر صانع أساطير، فقد صرف حياته كلها بحثاً عن أسطورة جديدة لم تقترب من كمالها الإنساني إلا مع زوربا المغوي، أما في «الإغواء الأخير للمسيح» فقد أوشك أن يفشل لأن المؤمن داخله كان أقوى من الكاتب، والمسيحية تلجم على عكس الوثنية التي تساعد على انطلاق الروح والجسد، فآلهة الأولمب الوثنية تعبث وتسخر وتعشق وتخون وتحيك المؤامرات كالبشر. لكن مع تناول شخصية دينية سامية المقام يختلف الأمر، خصوصاً أن كازنتزاكي اقترب من المسيح بنية مسبقة قال عنها في رسائله التي نشرتها زوجته إيليني بعد وفاته في كتاب المنشق: أردت تجديد وإكمال الأسطورة المقدسة التي تشكل أساس الحضارة المسيحية الكبيرة في الغرب، وليس الكتاب مجرد سيرة للمسيح، إنه جهد إبداعي مقدس ومؤلم يهدف إلى تجسيد جوهر المسيح مع إلغاء كل الأدران والأكاذيب التي ألحقها به المتجلببون والكنائس.

لقد كنت أفكر في هذين الكتابين في الطريق إلى صليب فيلاريموس الضخم الذي أقامه الرهبان على ربوة سامقة فوق رودس بعد أربع عشرة لوحة حجرية تمثل السيد المسيح منذ لحظة القبض

عليه وسيره مع صليبه مرحلة بعد أخرى إلى الجلجلة، وفي ذلك الطريق المغطى بشجر كثيف والمعلق بين السماء والأرض تدرك كم أخذت بعض الديانات من الأساطير من أحجار وأفكار، فالكنيسة التي تواجه صليب فيلاريموس أقيمت في القرن الرابع الميلادي من أحجار معبد أثينا في المكان الذي يضم أكروبولس إيليوس، وبالمناسبة فإن أكروبولس تعني باليونانية نهاية المدينة، وكان من عادة الإغريق أن يقيموا معابدهم في نهاية المدن على أعلى قمة عند حدود المدينة، ولاشك أن كازنتزاكي كان محكوماً بهذا الإرث المعقد وهو يكتب عن المسيح عليه السلام.

مع زوربا لم يكن الهدف الصعب موجوداً، لذا كان خلق الأسطورة أسهل، فهي تنويعة ما عرفه اليونانيون القدماء من شخصيات شهوانية منفلتة من عقالها، وأولها زيوس نفسه صاحب المغامرات التي لا تنتهي والقافز أبداً من سرير امرأة إلى حضن أخرى. ولعل هذا الأثر البعيد للأولمبيين الشبقين ظاهر في مختلف وصايا زوربا لسيده، وفي رسائل المؤلف الذي كان يظن من وفرة شبقيته أن الدماء العربية تجري في عروقه، وأن كل شخص من بيئة المتوسط بمن فيهم من عرب وطليان وأسبان وفرنسيين يحمل في داخله بذرة ما من زوربا، ويرهن روحه لشبقية غريبة تتحكم بتصرفاته ومواقفه وأفكاره. فقد كان كازنتزاكي شخصياً ضحية الصراع بين البوذية التي أحبها ولم يستطع التأقلم معها لاصطدامها بالموروث المتوسطي وأساطيره التي لا تهمل الروح، لكنها تعلي من شأن الجسد على عكس البوذية التي تطالب أن تميته.

وفي رودس المحمية من أثينا وأبولو كان يفترض أن يكون دور الروح أكبر. فأثينا عاقلة وحكيمة، وأبولو من أقل جماعة الأولمب

انهماكاً بالمغامرات النسائية. لكن ذلك الافتراض لا يصمد طويلاً. فكيوبيد (ابن الحرام) ولد أفروديت المرمرية الرابضة بكل جمالها ودلالها في متحف المدينة، يغتاظ ذات يوم من أخيه الذي عيره بجبنه وانشغاله بصيد الفراشات لعدم جرأته على صيد القواقع والثعابين البحرية، فما كان من كيوبيد الذي يحمل على كتفه سهامه في جعبتين واحدة للحب والثانية للبغض إلا أن ريش سهماً من كل جعبة ورمى سهم الحب في قلب شقيقه وسهم البغض في قلب الفتاة «دفنية»، التي سيعشقها أبولو ويلاحقها فتمعن في الهرب منه بعد أن غاص سهم الكره في قلبها، وجعلت تهرب عدواً من عاشقها مسافات طويلة إلى أن يرق لها قلب زيوس ويحيلها إلى شجرة غار في جزيرة رودس.

إن انتقام كيوبيد ابن أفوديت من أخيه صاحب المركبة الشمسية أبولو ابن لاتونا من أصعب أنواع الانتقام الذي عرفته الأساطير، وهل هناك أصعب من أن تحب من لا يبادلك إلا الكراهية والبغض فتلوذ مع كل مجدك وسطوتك بوحدتك القاسية لتغني «أنا هويت وانتهيت»، فمن لا يجد التجاوب ممن لا يحب تتحول حياته إلى جحيم ولظى.

مسكين وفقير إلى أقصى حدود الفقر أبولو حامي رودس، فله على كل تلة معبد، لكن ليس عنده قلب يحبه ولا امرأة تؤنس وحشته، نتيجة لانتقام ابن الحرام منه بتلك الطريقة الشريرة المرعبة.

والشكوك لا تحيط بمولد ابن الحرام (كيوبيد-إيروس) وحده، فأمه (فينوس- أفروديت) تضاربت بشأن مولدها الأساطير، وأجمل أساطيرها أنها ولدت من صدفة بحرية على شواطئ قبرص. ومع ذلك فإن نسبة الجمال في قبرص أقل منها في جميع جزر المتوسط وجزر

بحر إيجه. أما رودس فقد حصل لها ما حصل لمصر وبلاد الشام حين اختلط العرب والأتراك في المخادع والمطابخ فنتج عن ذلك طبق من –المازات الجمالية– التي تسر العين وإن اختلف المذاق.

لقد غادر الأتراك رودس على عجل بعد الحرب العالمية الأولى، وتم محو آثارهم بأسرع مما تصوروا، فهم كالمغول والتتار والشعوب القوية التي ليس لها ثقافات مؤثرة تحتل وتنتصر ثم تنهزم وتمضي، فكأنها لا احتلت ولا انتصرت ولا أقامت، ومن لا يصدق ليحاول أن يتذكر أثراً مغولياً واحداً في بغداد أو تترياً في حلب ودمشق.

وفي غمرة الاستعجال لمحو أثار الترك –والحضارات عملية متواصلة من التلاقح والمحو– بقيت على واجهة متحف الفن الحديث في رأس شارع سقراط في رودس العاصمة بقايا آية كريمة على باب تكية سليمانية ﴿... إنما نطعمكم لوجه الله﴾.

وقبالتها بقي الجامع. أما مقبرة المسلمين على الشاطئ فقد حاصرها كازينو للقمار ومسرح على بعد أمتار من ميناء –ماندراكي– حيث كل ما هناك ينطق بالبصمات الإيطالية التي كانت موجودة في القرون الوسطى بغزارة، ثم استعيدت وتم تجديدها أوائل القرن العشرين بعد أن وقعت الجزيرة بيد الطليان الذين كانوا يحضرون أنفسهم لإقامة طويلة، بدليل أنهم جددوا قصر كبير الفرسان ليكون منتجعاً صيفياً لملوكهم. فلم يسعفهم الحظ لأنهم سرعان ما انهزموا في الحرب الثانية لتعود رودس إلى حضن أمها اليونان عام 1948 بعد غيبة أربعة قرون ونصف القرن. فقد طرد سليمان القانوني أربعة آلاف من فرسان القديس جون من الجزيرة عام 1523 ومنها ذهبوا إلى كريت ثم مالطا ليؤسسوا عشرات الجمعيات السرية والعلنية.

إن معظم أبنية رودس وسورها السليم الباقي يعود إلى حقبة هؤلاء الفرسان الذين اشتروا الجزيرة من الإيطاليين في ظروف غامضة وحولوها إلى قاعدة متقدمة للحروب الصليبية. فالشارع الرئيسي في رودس القديمة يحمل اسمهم، وتمتد على جانبيه الأبنية المحصنة والثكنات، وأجملها مبنى هو مبنى القوات الفرنسية والقصر الرئيسي الذي تحول اليوم إلى «المعهد الإيجي لقانون البحار». أما مستشفى الفرسان المطل مباشرة على السور البحري فهو الذي تحول إلى متحف للمدينة وفيه كنوز لا تقدر بثمن. فغير تمثال أفروديت المرمري هناك سلسلة التماثيل الأسطورية التي تروي الإلياذة بالحجر وليس بالكلام، وأكثرها تأثيراً وإبهاراً مشهد «لاكون» حكيم طروادة الذي تنهشه وولديه الثعابين. فقد عارض هذا الحكيم إدخال الحصان الخشبي إلى طروادة، وقبل أن ينتصر رأيه أرسلت الآلهة الأولمبية التي تدعم الإغريق ثعبانين هائلين نهشاه مع أولاده لتتم الخدعة وتنهار المدينة من داخلها.

ودوماً تنهار المدن من داخلها، وهذا ما عرفه الفرسان، الذين لم يكتفوا بالسور المزدوج الذي تفصل ما بين قسميه قناة مياه تمنع الخيالة من التقدم، بل أنشأوا أمتن نظام استخبارات في القرون الوسطى لمعرفة ما يدور بالمدينة والجزيرة وما حولها من جزر. وإلى اليوم ما تزال أسرار جمعية فرسان القديس جون شبه مجهولة، فالمؤرخون لا يعرفون الكثير عن نشأتهم ولا عن أنشطتهم التي ازدادت سرية بعد أن وقعوا تحت السيطرة المباشرة للفاتيكان.

وباستثناء معبدي «لندوس» و«إيليوس» البعيدين نسبياً، تكاد رودس العاصمة تحتكر معظم الأبنية التاريخية، أما الكهوف ذات

الأهمية التاريخية فتجدها قبالة «فاليراكي» وفيها وجد الأركيولوجيون آثار حياة بشرية على تراب الجزيرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وهذا يعني أن التطور كان بطيئاً هناك قياساً بما كان يجري على أرض مصر وسورية والعراق. فالمباني الرودسية أقدمها يعود إلى المائة الخامسة قبل الميلاد. أما ما تبقى من ألوف السنين ومئاتها فبراح خصب تلعب فيه الأساطير الدور الأكبر، وكل أسطورة لها جذور. فحين تتلفت وتجد قطعان الماعز تملأ السهل والجبل تدرك أن أسطورة قيام «العنزة» بإرضاع زيوس لم تأتِ من فراغ. وربما كانت الحضارة الهلينية أكثر رحمة من الحضارة الرومانية، لذلك السبب، لأن كبيرها رضع من الماعز على عكس روملوس باني روما الذي رضع مع شقيقه من ثدي ذئبة ثم قتل شقيقه ليبني مدينته. وزيوس لم يكن مبرّءاً من القتل، فقد قتل هو الآخر أباه. وكان قتل الأب تقليداً في عائلته فأبوه قتل جده وجده قتل جد والده... وهكذا دواليك، تشرب التراب بالدم لإحكام سيطرة الذكور على مقاليد الحضارة.

ولعل الأكثر إثارة في ملاحم القتل الأولمبية، وكلها على ضفاف إيجة والمتوسط، بروز «كرونوس-الزمن» وهو الموازي لساترن عند الرومان، فهو الذي قتل أباه أورانوس، وهو صاحب المنجل الذي يحصد كل شيء أمامه. ونحن مازلنا نستخدم في العصر الحيدث مصطلح «منجل الزمن» للإشارة إلى القوة العاتية للوقت الذي يطوي الأفراح والأتراح ويحيل إلى عالم السكينة والنسيان أجمل وأشقى سويعاتنا.

ولا يلقى الزمن مصرعه إلا في الأساطير الإغريقية. فقد قتل زيوس ابن كرونوس أباه وتربع على عرض الأولمب. وفي متحف المدينة

عدة تماثيل وسيمة له تقدمه في منتصف العمر بالغ الطول وبلحية ذهبية، بينما تقدم ابنه أبولو «إيليوس» كغلام أجرد –كدت أقول أبله– وبالقرب منهما تمثال نصفي لباخوس راعي السكارى بعيون ناعسة شقية نصف مغمضة وكأنه لم يفق من سكرة الزمن. ومعظم هذه التماثيل استبعدتها السلطات الكنسية ثم الإسلامية في الحقب التركية فحفظت في بيوت أثرياء الجزيرة الذين تجمعوا لدواع أمنية في القرون الوسطى في قرية «تريانتا»، وتعني الثلاثين، لأنها كانت مكونة من ثلاثين بيتاً لصفوة القوم لا يجوز زيادتها، وما تزال بعض تلك البيوت الفخمة العريقة قائمة على الطريق بين إيليوس ورودس، وفيها وفي قرية «كاميروس» تحديداً تم العثور على معظم تلك الكنوز الحجرية.

ومن الطبيعي أن تكون الحياة الرودسية في مراحلها المتأخرة مخلوطة بنكهة تركية خفيفة تعكس واقع الحال تحت الاحتلال الذي لا يؤثر على طبيعة الفنون فحسب، بل على الحياة الاجتماعية وتفاصيلها اليومية وفنونها المستحدثة. فشخصية «بابا أوزو أفندي» التي يسهر معها الزوار الغريبون في مرابع «فاليراكي وأفندو وتريانتا» شخصية مهجنة تحمل بالاسم والثياب والحركات ملامح اليونانيين والأتراك الذين انحصر صراعهم حالياً في قبرص التي ولدت فيها فينوس من صدفة بحرية، مع أن رودس أقرب إلى تركيا، فبينها وبين مرمرة أقل من خمسة عشر كيلو متراً يقطعها الطرفان بالمراكب البدائية في ثلاث ساعات.

ورغم الاختلاط السطحي تظل الفروقات الجوهرية عميقة بين الأتراك واليونانيين، وهي أبعد من الأوزو وعصير التفاح، وهؤلاء

يأكلون السمك وأولئك الكباب، لأن الاهتمام بالفنون عند الإغريق فلسفات متكاملة للجسد والروح ظل الشبق التركي البسيط على حدود الحرملك، وحتى في هذا ظل الآغا العثماني متهماً في أدائه المخدعي منذ ما قبل السلطان عبدالحميد... فالمسعودي يخبرنا منذ بداية الاحتكاك بالأتراك عربياً في العصر العباسي أن تعاملهم مع النساء في المخادع أقل من الشعوب الأخرى، فيقول في كتابه الطريف جداً «مروج الذهب ومعادن الجوهر»: «لما كان الغالب على الترك البرد وعجزت الحرارة عن نشف رطوبات أبدانهم كثرت شحومهم ولانت أبدانهم وتشبهوا بالنساء في كثير من أخلاقهم. فضعفت شهوة الجماع فيهم، وقل ولدهم لبرد مزاجهم، وللرطوبة الغالبة عليهم».

وإذا كانت ثقافة الحرملك قد تطورت في قصور اسطنبول رغم هذا الحكم القديم، فربما يعود ذلك إلى أن تركيا كانت من أشهر مراكز الرقيق منذ أيام الجاحظ الذي يثني وصحبه على الجواري التركيات المجلوبات عادة من دول أوروبا الشرقية الحالية. ويشنع مؤرخون غربيون أيضاً على أفضل ما أنتجته تركيا وهو الجيش الانكشاري، فيقولون إن معظم عناصره صبيان نصارى مسروقون من دول مجاورة تتم تربيتهم تربية عسكرية تنسيهم جذورهم، فلفظة انكشاري تدل أصلاً على الغريب ومن هو من خارج البلد.

والتشنيعات كثيرة، ولليونانيين دور كبير فيها، فالخلاف بين الشخصيتين والهويتين عميق وجذري، وكتب على رودس وكريت أن تتعايشا مع ذلك التناقض، ويبدو أنهما نجحتا في التأقلم والمزج بين الأسلوبين فنياً وفي الحياة الواقعية. فزوربا اليوناني وريث الشبق

الإغريقي يتعلم العزف على آلة –السانتوري- على يد موسيقار تركي، والموسيقى اليونانية في الكثير من أنواعها تظنها تركية المنشأ، والقوم هنا وهناك يرقصون ليس على لحن –يا معلمة- إنما على الأنغام ذاتها التي كان يعزفها زوربا في مقلع الأحجار. والأتراك لا يعترفون موسيقياً بقيثارة أورفيوس التي كانت كما تخبرنا الأساطير تطرب لها الأحجار في مقالعها وتقفز لتقف على بناء أسوار طيبة مدينة قدموس الفينيقي، وتكرر تلك المساعدة الفنية مع أسوار مدن أخرى.

لقد كان أبولو سيد رودس متعدد الاختصاصات بين الأولمبيين، فهو للشعر والموسيقى والشفاء ومسائل جيدة أخرى ورثتها رودس عنه وعن أثينا الحكيمة التي أعطت البشرية شجرة الزيتون. وحصة رودس منها أكثر من مليون شجرة. وهناك خلاف تاريخي بين الغار والزيتون لصالح الثاني، فالعائدون من الحرب منتصرين توضع على رؤوسهم أكاليل الغار والذين ينتصرون ويفوزون في المباريات الرياضية والفنية تكون أكاليل الزيتون من نصيبهم، وحين زرت الجزيرة ربيع عام 2003 كانت تحضر نفسها لجدل أكاليل الزيتون للفائزين في أولمبياد 2004 الذي يستضيفه صانعوه الإغريق لأول مرة في العصور الحديثة. مع أنهم هم الذين اخترعوه وأطلقوه سنة 776 قبل الميلاد لينام مئات السنين ثم يتحول إلى تقليد عالمي يحمل الاسم ذاته، وتوقد شعلته في جبال الأولمب التي ورثها البشر عن الآلهة الأولمبية التي لم تخلُ على الدوام من نزق بشري وحماقات إنسانية.

ومن أعلى قمة في رودس نزولاً إلى خليج «أكسيا» لا يقع البصر على غير الشعر والزيتون والأساطير والبحر الذي يحيط بهذه

العناصر إحاطة إطار بلوحة، وسوار بمعصم، فمن البحر بدأ مجد اليونان وفينيقيا. وظلت للمتوسط اليد العليا على بحر إيجه الذي ارتبط أسطورياً بالخيانة، فهو يحمل اسم الملك إيجيوس الذي أرسل ابنه لقتل الوحش الخرافي «ميناطور» في كريت، وطلب منه وهو يبحر بالأشرعة السوداء أن يرفع الأشرعة البيضاء حين يعود لتعرف أثينا أنهم انتصروا وأدوا المهمة بنجاح. وفي كريت وقعت ابنة مينوس في غرام ابن إيجيوس وساعدته على عبور المتاهة وقتل الميناطور بشرط أن تعود معه إلى بلاده ليتزوجها، فأوهمها بالموافقة، وبعد أن تم له ما أراد سافر بها إلى جزيرة ناكسوس وقرر تركها هناك ليتخلص من وعد الزواج –كأن العالم مليء بالأنذال منذ الأزل– لكنه وفي غمرة انشغاله بالتخلص من التي خانت والدها لأجله نسي أن يرفع الأشرعة البيضاء. فلما اقتربت السفينة العائدة بأشرعتها السوداء ونظر إليها الملك إيجيوس ظن أن مكروهاً حصل لولده فرمى نفسه في البحر ومات غرقاً ليعطي اسمه لبحر إيجه الذي حصل على ذلك الاسم بعد خيانة نذل أضاع الأب والحبيبة في يوم واحد، ثم طواه مع انتصاراته ونذالاته منجل الحصار الأكبر، الزمن الذي يصارع الجميع ويغلبهم تاركاً للتاريخ مهمة إحصاء ضحاياه وتصنيفهم على شواطئ جزر إيجه وغيرها.

ومن الخيانة إلى الحزن تحتفظ رودس بعشرات التماثيل للموسيقار البارع والعاشق الحزين أورفيوس الذي قاده الوفاء للسفر إلى العالم السفلي ليعود بحبيبته «أرديس» بعد موتها. وبعد أن رقق قلب بلوتو بموسيقاه أعادها معه بشرط ألا ينظر خلفه لكنه وفي نهاية النفق الفاصل بين عالمي الحياة والموت نظر خلفه ليتأكد من أنها

تتبعه فماتت ثانية لإخلاله بالشرط، وصار مثالاً للحب الحزين... فهناك أحباب ما أن نستعيدهم حتى نفقدهم.

وبعيداً عن خيانة ابن إيجيوس ووفاء أورفيوس اعتقد الإغريق في أساطيرهم وفلسفاتهم على الدوام أن الأرواح جميعها كانت طاهرة ونبيلة وسامية المقاصد، وأن جزءاً من طهارتها يحترق في شهوات الجسد والركض بين الخوف واليأس والرجاء والأمل. ورغم شفافيتهم ظل موقفهم من الحب متناقضاً. فمرة يقود إلى الإثم وأخرى إلى التطهر، حسب مزاج الراوي والمرحلة ودرجة التطور الحضاري التي تمثلها كل واحدة من تلك الأساطير التي حفظت طفولة العقل البشري وتجليات الروح الإنسانية الطاهرة قبل أن تلوثها الأطماع والأحقاد، وتهبط بها من عليائها –حسب بعض الفلسفات– شهوات الجسد.

# (2)

# كريت هبة زيوس وقدموس

ولدت أثينا كما شاهدنا في أساطير رودس من رأس زيوس مباشرة تماماً كما تولد الأفكار ولكن بضربة فأس، فقد شعر زيوس بالصداع -كما تقول الأسطورة- فعاجله ولده بضربة على رأسه بفأس حاد، وعلى الفور خرجت أثينا، وبيدها مغزلها وشارة العدل والحرية، فكل عقل وحكمة في الدنيا -إذا كان هناك عقل وحكمة- أتيا منها بحيث لا يشاركها في هذه المكرمة غير شقيقها بروميثيوس الذي شاع ذكره في قصائد الشعر العربي الحديث التي قدمته كسارق للنار، وأغفلت مأثرته الأخرى في تقديم الحكمة مع أثينا للبشرية.

ولأن للأسطورة منطقها الداخلي فإن بروميثيوس، الذي حكم علي زيوس بأن يشد إلى صخرة وأن تنهش الصقور كل يوم كبده، لم يدفع ذلك الثمن لسرقة النار وحدها، فقد منح ذلك الطيب الإنسان الإحساس بالدفء، وأعطاه ما هو أهم وهو العقل الذي يحاكم به أشياء العالم حوله.

وظاهر غضبة زيوس على ابنه ليس بسبب هذه ولا تلك، إنما لأجل خديعة على مائدة كان يمكن أن يعتبرها الأب مزحة لولا أنه لا يجوز المزاح مع سيد الأولمب.

وتبدأ قصة عقاب بروميثيوس من ثور مذبوح، وليس من ثور مقدس هذه المرة، فقد أولم بروميثيوس لقاطني الأولمب وللناس العاديين، وذبح ثوراً وضع عظامه وشحمه تحت جلده المسلوخ فبدا كومة عظيمة، ووضع اللحم الأحمر -الهبر بلغة الأفلام المصرية- في كومة صغيرة قدمها لزيوس الذي استصغرها واختار لجشعه الكومة الكبرى، وأخذها لنفسه، فلما كشف عنها الجلد ولم يجد إلا الشحم والعظام أنزل غضبة على بروميثيوس، وحكم عليه بتلك العقوبة الشنيعة، لكنه ظل أفضل حالاً من سيزيف، فقد خلصه هرقل بعد ثلاثين سنة، بينما ظل سيزيف يحمل الصخرة إلى القمة ويتدحرج معها إلى الأبد في جزيرة أحبها زيوس واختارها ملجأ لعش حبه السعيد مع أوروبا الفينيقية.

ولو أتيت إلى شاعر عالمي ضخم مثل إليوت، فسوف تجد أنه يترك الفرع ويعود للأصل، فيكتب «في الأرض الخراب» ليس على سيزيف وبروميثيوس الإغريقيين إنما على فلياس الفينيقي:

**فلياس الفينيقي مات منذ أسبوعين**
**نسي صيحات التجارة والربح والخسارة**
**كقاربه كان يعلو ويهبط**
**ماراً بمراحل عمره وشبابه**
**داخلاً في الدوامة اياها...**
**أممي أم يهودي...؟**
**أنت يا من تدير العجلة وتراقب هبوب الريح**

فكر في فلياس الذي كان يوماً ما وسيماً وطويلاً مثلك.

وقصة عقوق الإغريق للفينيقيين ليس سببها قدامى اليونانيين والكريتين، إنما أوروبا العصر الصناعي، ففي القرن الثامن عشر والتاسع عشر تم ما يسميه مارتن برنال «تلفيق بلاد الإغريق» لتناسب الحضارة الغربية التي أرجعت جذورها للإغريق وتلاميذهم الرومان، وأنكرت أية مساهمة شرقية في تاريخ العالم باستثناء المساهمة العبرانية التي دخلت لاحقاً على استحياء، حين تحكم اليهود بمصارف العالم، ومن يتحكم بالبنوك يتحكم بالجامعات والأفكار ويفرض ذوقه وفكره ورؤيته. لذا يقول الإنجليز في أمثالهم «إن من يدفع للزمار وحده يملك الحق في فرض اللحن».

وحين يتم عزف اللحن يرقص الذي طلبه ومعه الآخرون، فالطلب فردي والرقص جماعي، والثقافة كأثينا الإغريقية بنت شرسة وغير شرعية، لكنها عاقلة علمتها النوائب أن تحني رأسها للريح إلى أن تمر العاصفة، ثم تعيد البوصلة إلى اتجاهها الحقيقي.

والاتجاه الحقيقي أن الإغريق، مثل كل حضارات العالم، نهلوا ممن جاء قبلهم، واستعانوا بجيرانهم على المتوسط من مصريين وسوريين وليبيين وقبارصة، واعترفوا على أيامهم بالدين الحضاري إلى أن جاء أحفادهم الناكرون للجميل، وصنعوا من معاناة أجدادهم لتطوير العالم القديم قصة أخرى كي لا يدفعوا لقدموس نصيبه من التركة الإغريقية.

وأهم دَين يعترف به قدامى اليونانيين للفينيقيين هو الكتابة، وهذا ما لا يستطيعون نكرانه وإن أرادوا، فشكل الحرف الإغريقي يكاد ينطق بأصله الفينيقي، والنصوص التاريخية لمعاصري حقب

التلاقح تلك تؤيد منحة قدموس الفينيقي الذي حملها من الساحل السوري برفقة آخرين إلى السيدة أثينا التي كانت ستظل بكماء وغير ذات تاريخ مكتوب دون تلك الأبجدية التي لم يخترعها الفينيقيون حباً بالثقافة والفن وحدهما، إنما لتدوين حساباتهم، فهم تجار نشيطون تعنيهم دفاتر الصادر والوارد قبل الشعر، ويريدون أن يعرفوا كم جرة زيت أو نبيذ صدروا واستوردوا، وكم ثوراً وبقرة في كل مزرعة، وكل من يتعامل معهم يجب أن يتعلم مسك الدفاتر أولاً، وهذا لا يتم من دون أبجدية متطورة تختلف عن الهيروغليفية المصرية التي ظلت صعبة وبدائية بعد أن حبسها الكهنة في المعابد، وأوشك هؤلاء أن يجعلوا قراءتها قاصرة على معابد «سيوة»، فعندما تم نُبش قبر والدة هرقل في الألف الأول قبل الميلاد وجدت ألواح أرسلها حكام كريت إلى كهنة سيوة الذين زارهم أيضاً الإسكندر المقدوني قبل غزوته العولمية الشهيرة للشرق البعيد.

والمؤرخ هيرودوتس هو أول من قال بالأصل الفينيقي للغة الإغريقية، وعنده حول ذلك أكثر من إشارة، منها ذلك النص الذي نقتطفه من كتاب أثينا السوداء لمارتن برنال، وهو من أكمل الكتب التي درست جذور الحضارة الإغريقية.

يقول هيرودوتس، أقدم المؤرخين وأكثرهم مصداقية: «إن الفينيقيين الذين قدموا مع كادموس (قدموس) واستقروا في هذه الأرض أحضروا معهم بين أشياء كثيرة علموها اليونان الحروف التي لم تكن معروفة لدى الإغريق مع بعض التعديلات على شكل الحروف وأصواتها، وكان الأيونيون من بين الإغريق هم من يسكنون بجوار

الفينيقيين، فتعلم الأيونيون الحروف منهم، وأعطوا لهذه الحروف اسم الحروف الفينيقية، ولقد رأيت بنفسي –كما يقول هيرودوتس– الحروف الكادمية الفينيقية في معبد أبولو الإسميني في طيبة بيوتنيا محفورة على بعض المقاعد الثلاثية المقدسة، وهي في الغالب تشبة الحروف الأيونية».

ويحاجج القائلون بأصول أخرى للغة الإغريقية، غير الفينيقية بقرص مكتوب تم اكتشافه عام 1908 في كريت بقصر فيستوس العائد للعصر البرونزي والحقب المينونية، وقد رأيت –هذه المرة أنا وليس هيرودوتس– قرص فستوس The phaistos Disc في متحف هيراكليون عاصمة كريت الحديثة، وهو من أهم مقتنيات ذاك المتحف الثري المليء بالفؤوس ذات الحدين، ورؤوس الثيران، والتوابيت. ثم اطلعت على كتاب «لويس جودارت» عن ذلك القرص الذي سيدخل من يفك رموزه التاريخ كشامبليون وقراءة حجر رشيد.

ويميل المؤلف إلى الاعتقاد بأن أقواماً مجهولين –لا يقول لعلهم الفينيقيون– نقلوا الكتابة إلى جزيرة كريت، ويقرن اكتشاف ذلك القرص المكتوب الذي قد يفك ألغاز حضارة كاملة باكتشافات أخطر منها كاكتشاف أطلال طراودة عام 1871 على يد الألماني هنري شليمان، واكتشاف بقايا مقر مينو في كونوسوس، على يد السير آرثر إيفانس. أما صاحب اليد الطولى في الأفضال الآثارية الإغريقية فهو الإيطالي «مايكل فنتريز» الذي أثبت أن الإغريق كانوا يوجدون في كونوسوس قبل هوميروس بخمسمائة عام على الأقل، ونصوص هوميروس هي التي استعان بها إيفانس لتحديد موقع قصر مينو الذي

تشكل محتوياته مع قصر فيستوس معظم مقتنيات متحف هيراكليون الكريتي.

لقد أثبتت أطلال طروادة ومقتنيات مينلاس وأجاممنون ويوليسيس وعدة شخصيات من ذلك السفر الإنساني البديع أن الإلياذة التي تشهد حروب الآلهة الإغريقية والبشر ليست من صنع الخيال، فالأساطير ومهما بالغت فى الاتكاء على المخيلة والمبالغة فيها لابد لها من جذر تاريخي تبدأ منه وتنطلق شرارتها كما انطلقت أثينا من رأس زيوس بعد نوبة صداع حادة.

وقد كان يمكن لكريت أن تعترف بالدين الفينيقي في الكتابة وغيرها لولا العلاقة المعقدة مع الأتراك الذين سيطروا على كريت منذ عام 1645، وأثخنوها جراحاً وتخلفاً وتشويهاً. تماماً كما فعلوا بالعرب. ولأن الساحل السورى كان تحت السيطرة العثمانية أثناء تلك الاكتشافات كلها، فقد تم ربط سورية على الدوام بتركيا بكل ما يحمله ذلك الربط من كراهية للطرفين، ولم يتغير الموقف اليوناني إلا في النصف الأول من القرن العشرين بعد أن ثار العرب ضد العثمانيين وبدأوا يبلورون هوية لم تحرص في حصتها السورية على التأكيد على الإرث الفينيقي والآرامي، لأن الفكر القومي بتياره المتطرف كان يرى فى التركيز على الحضارات الأصلية لسورية ولبنان تهديداً مبطناً لفكرة العروبة، وحين لا تعمل بلاد بأكملها على الدفاع عن حصتها الحضارية، فإن الآخرين لن يقوموا بالدفاع بالنيابة عنها، أضف إلى ذلك الكسل الرسمي الذي جعل الحكومات السورية المتعاقبة في القرن العشرين لا تكلف نفسها عناء التعريف الكافي علمياً وسياحياً

بأبجدية رأس شمرا بأوغاريت قرب اللاذقية، وهي أقدم أبجدية متكاملة معروفة تاريخياً في العالم.

ويحاول الكريتيون هذه الأيام نسب اللغة المجهولة على قرص فستوس إلى نوع من الهيروغليفية الحيثية المعروفة بالبابلية الغريبة، وكانت سائدة في لواء الإسكندرون الذي كان شمال سورية، فصار بمساعدة الاستعمار الفرنسي جنوب تركيا، ويعتقد الآثاريون الكريتيون أن تدريس تلك اللغة كان يتم في حلب التي تعتبر من أقدم وأرقى المراكز الحضارية في العالم القديم، فلا غرو والحالة هذه أن تصل أولى المطابع الحديثة إليها، فأول مطبعة في دول الشرق رخصت لها الحكومة العثمانية في القرن السادس عشر كانت مطبعة حلب.

لقد اكتفى بروميثيوس مع أثينا بتعليم البشر الحكمة لأنهما لم يعرفا الكتابة، وتم الاحتفاظ بذلك الدور لقدموس الفينيقي في العقلية الغربية، كما رسمهم فلوبير في رواية سلامبو متوحشين يذبحون النساء بعد اغتصابهن ويقدمون الأطفال قرابين للآلهة الوثنية في قرطاج. ومن صورهم على ذلك الشكل لم يكن يدري أن أسطورة قرطاح بدأت من ذكاء امرأة فينيقية، وصلت إليها منهكة من الشاطئ السوري، وطلبت من حاكمها أن يمنحها قطعة أرض بحجم جلد الثور –الثور مرة أخرى– فلما وافق معتقداً أنها ستضطر للمبيت على تلك الأرض واقفة أخذت الفينيقية الذكية جلد الثور، وقسمته إلى خيوط رفيعة ربطتها معاً وأحاطت بها قطعة واسعة من الأرض، فلم يستطع ملك قرطاج الوثني التراجع عن وعده، لأن المرأة قد التزمت بمساحة جلد الثور، ولكن على طريقتها.

إن مشكلة الحضارة الفينيقية ذات الأفضال على الإغريق وغيرهم أنها لم تكن متوحشة كما اعتقد فلوبير في سلامبو، وهذا سر مقتلها وذوبانها السريع، فالعالم القديم كالعالم الحديث يجب أن تكون فيه قادراً على البطش لتعيش، إما أن تتاجر وتستمتع وتقرض الشعر، وتكتب الملاحم وتتفرغ لمراقصة حوريات البحر على شواطئ المتوسط، فتلك مسألة تفرحك وحدك، والمتعة الشخصية والثقافية غير القدرة على البقاء في ذلك العالم الذي كان ملوكه يختارون الفأس ذا الحدين -وليس الحد الواحد- شعاراً رسمياً للدول الإغريقية والكريتية التي لم تزعم قبل حقب الفلاسفة الكبار حرصها على العدل والسلم والحرية.

(3)

# استانبول... عميان حول الحرملك

تقول الأسطورة، وخلف بناء كل مدينة أسطورة جميلة، إن الكورنثيين ذهبوا إلى عراف دلفي وسألوه أن ينظر في نجومه، ويدلهم على مكان بهيٍ المنظر عذب المياه والمخبر، فقرأ عزائمه وتعويذاته ولو كان مسلماً لبسمل وحوقل ثم التفت إلى من أتوا لاستشارته، وقال: اذهبوا إلى المكان الذي أمام مدينة العميان وأقيموا تأتيكم الصحة والهناء.

وما كان أحد يعرف أين تقع مدينة العميان، فاستسلم الكورنثيون لقدرهم، وأبحروا ليلاً إلى أن رست قواربهم على شواطئ بحر مرمرة، فناموا ليفيقوا صباح اليوم التالي على منظر كأنه الجنان، فقد كانت منطقة «سراي بورنو» أمامهم، وأمامها على مد البصر «يندلح البوسفور» بفضته الزرقاء، وعلى شمالهم كان مضيق القرن الذهبي يساعد البوسفور على احتضان منطقة «غلطة» في استانبول، فنصبوا أوتادهم وأقاموا، ولسان حالهم يقول: من يعش أمام هذا الجمال ولا يراه لابد أن يكون أعمى، وبالفعل فإن «غلطة» من أجمل أصحاحات الطبيعة.

وأعمى استانبول غير أعمى غرناطة، مع الاعتذار من الشاعر أراجون ولوركا ومواطنه الأندلسي أنطونيو جالا صاحب كتاب «الوله التركي»، فالوله في استانبول ليس له طعم الشفقة، لكنه مثل كل حب عظيم جريء ومقتحم ومولد للبهجة والتسامح كعناق الصليب والهلال.

وما دمنا قد فتحنا سيرة التسامح، فذاك تجده على أصوله في البراح الممتد بين الجامع الأزرق، وكنيسة «آيا صوفيا» في استانبول، فذاك الميدان المعروف باسم السلطان أحمد ساحة خيالية لمن يود توليد أفكار التسامح بين الأديان والبشر والغيوم.

في منتصف الساحة تماماً وأمام النافورة التي توزع رذاذها بالقسط للعشاق، والسياح المتعبين تنظر إلى يمينك، فترى الكنيسة بقبابها البيزنطية ولونها القرمزي الحائل الذي يوشك أن يكون ورديا، تمد مناراتها الأربع لعناق الجامع الأزرق بمآذنه الست، ففكرة بناء جامع دون إيذاء الكنيسة إشارة تسامح ووئام بحد ذاتها، لكنها لمن يعرف التاريخ لا يمكن أن تفهم هناك في هذا السياق، لأن الكنيسة نفسها تحولت منذ أيام محمد الفاتح إلى مسجد، وجاء أتاتورك ينهي الخلاف حولها ويحيلها إلى متحف، فالفن في سياقه الحضاري والروحي شكل من أشكال العقيدة، وكل المدن التي تخضبت أسوارها بالدم تدرك هذه الحقائق وتحاول أن تتصالح مع تناقضاتها مرة بالدين، وأخرى بالفن، وثالثة بخلطة من الاثنين فوقها رشة علمانية تغطي الأزرق والوردية.

والعلمانية أتت مع أتاتورك لتضع حداً للصراع باسم العقائد والأديان، وهذه مسألة خلافية لم يفهمها الشاعر أحمد شوقي في

هذا السياق. فالتركي الذي صار أميراً لشعراء العربية ناح نواح الثكلى يوم أقدم مصطفى كمال على إلغاء الخلافة الإسلامية، ونفى الخليفة من تركيا، وقد نظم شوقي وقتها قصيدته النائحة المعروفة باسم «خلافة الإسلام» ومنها:

**عادت أغاني العرس رجع نواح**
**ونعيت بين معالم الأفراح**
**ضجت عليك مآذن ومنابر**
**وبكت عليك بمدمع سحاح**
**والشام تسأل والعراق وفارس**
**أمحا من الأرض الخليفة ماح؟**
**أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح**
**أن الجواد يثوب بعد جماح**

وشوقي أعرف بقومه منا، فهو في البيت الأخير يلمح إلى لقب أتاتورك الأصلي «الغازي» الذي حمله بعد انتصاره على اليونانيين. والتاريخ في استانبول وفي كل مكان سيرة غزاة يقتلون وينهبون ويفسدون ثم يأتي الفن المأجور، فيرسم لهم صورة زاهية. وإن لم تصدق فاذهب وقف أمام لوحة محمد الفاتح في «دولمة بهجة» وسوف تظن الفتح بالأخضر الكموني والأزرق الصافي لوحة رومانسية لرحلة صيد يقف فيها محمد الفاتح على حصانه الأبيض ليشرف على نزوله أمام شاطئ «طوب قابي القوارب إلى مدينة العميان» التي كان اسمها قبل نزوله أمام شاطئ «طوب قابي» القسطنطينية نسبة إلى بانيها الثاني الإمبراطور قسطنطين الذي أعاد إعمارها لتكون «كوارتر

روما» أي روما الثانية، أما اسم بيزنطة الذي يلف المدينة ويمتد ليغطي حضارة كاملة نشأت على ضفاف البوسفور، فقد جاء من اسم استانبول الأول اللاتيني «بيزانجا» الذي حوره العرب إلى بيزنطة مع أنه لا صلة قرابة حميمة بين الطاء التي تخرج من أول سقف الحلق والجيم المعطشة التي تخرج بالكاد من آخره.

وتروى عن يوم الفتح أساطير كثيرة، فحين سار محمد الفاتح من الشاطئ إلى كنيسة «آيا صوفيا» في التاسع والعشرين من مايو/ أيار عام 1453م نشطت المخيلة الإسلامية والبيزنطية معاً. واحدة ترثي والثانية تفاخر، فلما جاء سليمان القانوني بثيابه الأرجوانية المذهبة وحريره الغالي تحولت أساطير شراسة المحاربين إلى منطقة المباهاة بالثراء والغنى والجاه، واختلط ذلك كله بسيرة المحظيات في الحرملك، ليصبح التاريخ العثماني كدكاكين العطارين في كل شيء، ومعظم ما فيه ليس من اختراع صاحبه ولا من إنتاجه. وملكية السلاطين لكل شيء –قيل إنه حين وصل إلى مساحة كنيسة «آيا صوفيا» في ذلك اليوم المشهود شاهد محارباً من جنوده يخلع بعض أحجارها المذهبة فوخزه بالسيف وسأله عن ذلك، فزعم الجندي «الممسوك» بالجرم المشهود أنه يفعل ذلك دفاعاً عن العقيدة، فانهال عليه الفاتح ضرباً وقال: أنت وأمثالك يكفيكم الذهب والجواري أما الأمكنة فهي ملكي. قالها ثم صلى في الكنيسة وأحالها إلى مسجد.

ولاحقاً وحين وقفت أمام «عمود الأمنيات» على مدخل الكنيسة، ووضعت إبهامي في الحفرة المرمرية الصغيرة تمنيت أن تعود إلى الإسلام السياسي ظاهرة عمر بن عبدالعزيز العادل الذي أعاد كل

كنائس دمشق إلى المسيحيين باستثناء واحدة هي التي يشمخ مكانها الجامع الأموي حالياً، ولهذه الأمنية أسبابها. فالذي يسيح في العالم بقلب المحب وعقل المتسامح يلاحظ أن نصف دماء البشرية كان يمكن توفيرها لولا المذابح التي تحولت إلى محاريب والمحاريب التي صارت مذابح كنسية.

لقد ساقني الحظ ذات يوم في جزيرة «كريت» إلى كنيسة معلقة أقيمت مكان محراب، وفي الأندلس عشرات أمثالها في قرطبة وغرناطة ومالقة، و«آيا صوفيا» لمدة 921 سنة ثم صارت مسجداً لفترة 481 عاماً، وهي الآن تزهو بالاثنين، ويمكن أن تقدم كمثال على تعايش الأديان حين تبعدها عن المطامع السياسية، وأين ذاك الذي يستطيع تخليص الدين السمح من السياسة السمحة؟

في «آيا صوفيا» وفوق المحراب تماماً، وكما تجد في معظم المساجد التي صارت كنائس في الأندلس، لابد أن تطالعك الآية الكريمة: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب...﴾، وفي «آيا صوفيا» تجد الآية وحولها آية الكرسي على شكل السلام بالذهبي، والهالتان النورانيتان تشعان سلاماً ومحبة وسط الآيات القرآنية. وحين تحدق إلى الأعلى حيث الألوان التي عاشت أكثر من خمسة عشر قرناً، ويكون المحراب على يمينك تنظر إلى اليسار فتطالعك الحكمة الإسلامية التقليدية «رأس الحكمة مخافة الله» التي تجدها بكثافة في المساجد وقصور الحكم، فتظن أنها تفعل فعلها وأن القوم اتعظوا، ثم تنظر، فإذا العدل هو الغائب الأكبر بشقيه الاجتماعي والسياسي، في بلاد ظل الاستبداد والحكم المطلق يسوسانها وغيرها عدة قرون.

والمنبر الموجود بـ«آيا صوفيا» هذه الأيام يرتدي طربوشاً أزرق مذهباً، وهناك من يقول إن رهبان الكنيسة شاركوا في بنائه تأكيداً على التسامح. وآخر الإضافات التحسينية أضيفت إليه في القرن السادس عشر. أما موزاييك الكنيسة وأمام وعلى بعض الأعمدة فيعود إلى القرن التاسع الميلادي، وأمام المحراب تماماً المستطيل المرمري المزخرف الذي أضافه السلطان مراد الثالث للمؤذنين، والإضافة قريبة من دائرة تتويج الأباطرة البيزنطين وإمام الأباطرة والمؤذنين على الجهة المقابلة إضافة أخرى لحريم السلاطين. ولن نفتح سيرة «الحرملك» اليوم، فذاك حديث نتركه إلى أن نصل إلى قصر «طوب قابي» الذي صُنعت في زواياه معظم حكايات الحس الشرقية، فهناك عاش السلاطين ومحظياتهم وخصيانهم عدة قرون، وذهبوا بعد أن تركوا للعالم إرثاً رهيباً من الشبق الذي يفضل أن نتناساه ونحن نقف في كنيسة «آيا صوفيا» ومسجدها، حيث الصالة الفسيحة المرتفعة لعنان السماء مزدحمة بتناقضها المنسجم، فأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول الكريم وصحابته تتآخى على الجدران مع أقدم لوحات الموزاييك البيزنطي، وأشهرها في ذلك المكان الروحي القابل لكل الأديان لوحة المدخل الضخمة للعذراء مريم، ويعود تاريخها للقرن العاشر للميلاد، وفيها عيسى الطفل على حضن أمه المستوية على عرشها الأزرق الذهبي، وعلى يسارها قسطنطين الكبير باني المدينة ومجدها يقدم لها نموذج مدينته، وعلى يمينها الإمبراطور جوستنيان يحمل موديل كنيسة «آيا صوفيا» الأول ليقدمه للعذراء مريم.

ولا يضاهي هذه اللوحة دقة على مدخل آيا صوفيا إلا لوحة متحفها، حيث الإمبراطور محاطاً بالإمبراطورة، وجبرائيل عليه

السلام يظهر كما في اللوحة الأولى والهالة حول رأسه. وتلك قداسة لم يدعها أباطرة روما الأولى على عكس روما الثانية بيزنطة، حيث أعطى الأباطرة لأنفسهم صفات القداسة ورسمهم الرسامون بالهالات النورانية.

ولا تستطيع وأنت تجتاز ساحة السلطان أحمد من «آيا صوفيا» إلى المسجد الأزرق إلا أن تثني على تسامح ذلك السلطان الذي طلب من معماره أن يقيم مقابل الكنيسة مسجداً يضاهيها في الفخامة، وهو مسجد المآذن الست الذي تحكى عن بنائه عشرات القصص، وأشهرها أن السلطان طلب من مهندسه المعماري أن يجعل المآذن من الذهب، ولما لم يكن في السلطنة كلها ما يكفي ذلك المقدار العظيم تلاعب المعمار باللغة وساعدته التركية على ذلك فكلمة «ألطن» فيها تعني الذهب و«ألطب» تعني «ستة» وهكذا جعل المعمار للمسجد ست منارات، وترك الذهب للزخرفة الداخلية الدقيقة التي أصبحت متاحة في ذلك الوقت بعد أن فرغ سليمان القانوني القاهرة ودمشق من كل ما فيهما من «الصنايعية» الذين وضعوا داخل ذلك المسجد فناً عريقاً لا يضاهى، وبالصدفة البحتة فقد تم إنجاز ذلك المسجد بمآذنه الست عام 1616، فصار فيه بمناراته ثلاث ستات متلاحقة، وذاك كما هو معروف رمز الشيطان الرجيم الذي نستعيذ بالله منه جانب منبر المسجد الأزرق، ثم ترفع رأسك فترى بحر مرمرة من النافذة يصخب بود جميل ليذكرك بأن المدينة لم تعد مدينة دم وشعوذه، بل واحة روحية ومدينة سلام تتآخى فيها الأديان. فهي اليوم كما قال شوقي:

**خلقت كأنني عيسى حرام  على قلبي الضغينة والشمات**

وتلك صفة كل مدينة كوزمبوليتانية حقيقة.

ولا تسلني من أين تدخل إلى استانبول. فهي ليست كبيروت تدخلها على طريقة الشعراء من بوابات النساء والفقراء، ففيها الشعر وفيها الأنوثة وفيها الفقر، وهي في الواقع عدة مدن في مدينة واحدة، والاسم لا يعني تماماً ما قد تفهمه منه بالعربية، فمنطقة «فندقلي» مثلاً ليست منطقة الفنادق إنما حي السلاطين في أواخر أيامهم قبل غروب شمس الخلافة، ويتوسط ذلك الحي «دولمة بهجة» واسم أيضاً لواحد من أفخر قصور المدينة، فقد تم بناء قصر دولمة بهجة بعد أن بعد عهد العثمانيين بالبداوة، وصار الذهب يصب في خزائن الخلفاء من ثلاث قارات. وبما أننا فتحنا سيرة البهجة سنترك هذا القصر مع قصر مغامرات السياسة والحريم «طوب قابي» لنطل من «فنار بهجة» وبمساعدة البحارة والشعراء والنساء على عالم استانبول السري، حيث تحت كل حجر في سور تلك القصور وساحاتها حكاية تقطر بالعطر والظلم في عالم اختلطت مقاييسه ورومانسيته وتحكمت به بعد عصور المحاربين الشرسين، الغواني والجواري، والقهرمانات.

وقبل أن تدخل إلى «الحرملك» في قصر «طوب قابي» باستانبول ستكون قد مررت على «الباب العالي همايون»، ولعل هذا الاسم يفسر لك الصفة التي مازلنا نطلقها على سبيل التندر في بلاد الشام على بعض القرارات الغريبة وغير المفهومة، وسابقاً، وقبل هذا التحريف الانتقامي كانت القرارات الهمايونية فرمانات سلطانية نافذة تتخذ خلف الباب العالي، وترسل إلى ولايات السلطنة من اليمن إلى الجزائر، وإلى نصف دول أوروبا الشرقية الحالية التي كانت تحكمها مثلنا الفرمانات الهمايونية.

وقد غابت أبهة الهمايون في الواقع، وظلت في الصور المعلقة على الجدران، فهنا، في القصر لوحة للباب العالي في القرن التاسع عشر أثناء خروج مراد الثاني من باب الهمايون، وكل ما في تلك اللوحة ينطق بالألوان الحارة، فالطرابيش الحمر، والعمائم الخضر، والقفاطين البيض والسود، تحيل المكان إلى كرنفال حقيقي لسلاطين يعرفون أن رعيتهم تقاد بالمظاهر، فيكثرون منها ومن القرارات الهمايونية التي ترمي دوماً إلى زيادة الذهب في خزائن السلطان في الآستانة.

وخلافاً للمألوف التاريخي يراودنا الظن -وبعضه ليس إثماً- أن القرارات الحقيقية في السياسة والإدارة كانت تتخذ في «الحرملك»، فهي قرارات «حرملكية» وليس لها من «الهمايونية» غير ذلك الاسم الذي دخل التاريخ الأوروبي أيضاً، فأهم وثائق سقوط السلطنة العثمانية وثيقة تعرف باسم «الخط الهمايوني»، وفيها قدم السلطان عبد المجيد للدول الأوروبية ذات التنازلات التي قدمها أبو عبدالله الصغير لفرديناند وإيزابيلا في الأندلس. وميزة هذه الوثيقة عن الوثيقة الأخطر التي سبقتها وعرفت باسم «الكلخانة» أنها سمحت للمرة الأولى بعدم محاسبة من يغير دينه من رعايا السلطة، وينتقل من الإسلام للمسيحية.

وقد وقع عبد المجيد «الخط الهمايوني» عام 1272هـ. ومنذ ذلك الوقت بدأ التدهور البطيء «خطوة خطوة» إلى أن تفسخت الخلافة العثمانية بالكامل في نهاية الحرب العالمية الأولى، وبذلك تكون في الحساب التقليدي قد حكمت العالم العربي أربعة قرون كاملة. بدأت بمعركة «مرج دابق» قرب مدينة حلب السورية عام 1516.

ودعك من الحساب التقليدي، فهذا ليس حقيقياً، فالواقع أن الأتراك حكموا العالم العربي «أوف آند أون» منذ أيام الخليفة المعتصم الذي استقوى بأخواله الأتراك على أخوال المأمون الفرس، فأتوا وبسطوا نفوذهم ودعموا ابن أختهم، وأوشكوا أن يخربوا بغداد قبل أن يخربها التتار، لو لم يقم ابن أختهم المعتصم بإبعادهم عن عاصمة الخلافة، وبناء مدينة جديدة لهم هي «سر من رأى» التي صارت سامراء في الوقت الحاضر.

وهناك طرفة يرويها ابن الأثير في تاريخه الكامل عن مدى تحكم الأتراك بخلفاء بني العباس، فيقول: إن المعتز حين تولى الخلافة سأل خواصه المنجمين كم يعيش وكم يحكم، فقال أحد الظرفاء في المجلس: أنا أعرف، فقالوا له: أخبرنا، قال: إن مولانا يحكم مهما أراده الأتراك أن يحكم. فلم يبقَ في المجلس من لم يضحك.

وكان هؤلاء قد خلعوا ثلاثة خلفاء وسلموا اثنين، وحبسوا ثلاثة آخرين، وأشهر ضحاياهم الخليفة المتوكل الذي سبق سلاطين بني عثمان إلى الإكثار من المحظيات والجواري، وكان في قصره حين أوقفوه بالشمس وانهالوا عليه بالحراب، أربعة آلاف جارية.

والحقيقة أن «الحرملك» ليس من اختراع العثمانيين، فاللفظة آشورية مأخوذة من «حرمتو» أما قانونها فلم يتغير. حيث الاعتداء على حريم السلطان أصعب من الاعتداء على عرشه. وحين صار عند الأتراك عنواناً للشبق وكل محرضات المخيلة الحسية، لم يترك هؤلاء الحرملك كما ورثوه من العباسيين والمماليك، إنما نظموه حسب عقليتهم البيروقراطية، وجعلوه طبقات ومراتب وطقوساً، وهذا بالذات ما حرض المخيلة الغربية وشحنها، وجعلها تظن أن المسلمين

في كل مكان لا عمل لهم غير التسري والعناية بالمحظيات والجواري في المخادع المقفلة.

وإن شئت أن تعرف أهمية «الحرملك» في الخلافة العثمانية فانظر إلى مناصبها، وسوف تجد أن «رئيس الخصيان» المكلف بالإشراف على «الحرملك» يأتي في المرتبة الرابعة بعد الخليفة والصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وغالباً ما كان رئيس الخصيان هو القوة الحقيقية في القصر التي تحرك الأحداث وتتحكم بها، وكيف لا يفعل وتحت إمرته أربعمائة محظية؟ فبهن على الدوام من هي قادرة على تدويخ السلطنة والسلطان.

لقد نجا البويهيون من سيطرة الجواري بفضل عضد الدولة ممدوح المتنبي، الذي فتنته جارية عن أداء أعبائه كرجل دولة، فأغرقها في النهر لأنه لا يليق –كما اعتقد– أن ينصرف الحاكم إلى اللهو بالقيان والجواري ويترك شؤون الحكم للخصيان، وهذا ما لم يتعلمه سلاطين بني عثمان الذين صاروا يديرون الخلافة من مخادع المحظيات.

والملاحظ على التاريخ السياسي أنه لا يتحدث عن سيطرة الجواري إلا في عهد الخلفاء الأقوياء، ففي عصر هارون الرشيد ولدت تلك الأبيات التي تنسب إليه عن تحكمه بالدنيا فيما تتحكم به جارية وشقيقاتها:

**ملك الثلاث الآنسات عنائي وحللن من قلبي بكل مكاني**
**ما لي تطاوعني البرية كلها واطيعهن وهن في عصياني**
**ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قـوين أعز من سلطاني**

وفي التاريخ العثماني أبيات مماثلة تنسب إلى السلطان سليم الذي كان لصرامته يلقب بياوز، ومع ذلك فقد تحكم بذلك الحاكم القوي ظبي بشري قال:

**ظبــي يصــول ولا اتصال إليه**

**ملك الفــؤاد بصارمي لحظيه**

**يسقي المدامة من سلافة ريقه**

**ويخصــنا بالغنــج من عينــيه**

**الناس طوع يدي وأمــري نافذ**

**فــيهم وقلــبي الآن بيــن يديه**

إن حرملك السلاطين ليس مفتوحاً بكامله للزوار، لكن القليل المتاح يفي بالغرض لتتعرف على ذلك العالم العجيب الساحر الذي تختلط فيه السياسة بالعطر، وحرير النساء بأرجوان السلاطين بذهب الخصيان وسلاسلهم، وهؤلاء كما يعتقد المحللون النفسيون يحقدون على الجنسين، وهذا ما يفسر الوحشية الصادرة عن بعض خصيان الحرملك العثماني.

وقبل أن يصل الزائر إلى مكان الحريم ويشم رائحتهن، يكون قد مر على سبع غرف للخصيان تتحكم بالمداخل الرئيسية، فالخصي ليس للخدمة فقط، ولكن للحراسة أيضاً، وهذا ما يفسر تحالفات الخصيان والجواري، فكل جارية تريد الخروج من ذلك المكان لغرض ما لابد أن ترشي خصياً. لكن ماذا تستطيع الأنثى مهما كانت فتنتها أن تقدم للخصي؟

قطعاً أشياء كثيرة بدليل أن ذلك التحالف صمد طويلاً، فكانت الجارية تخرج وتعود بتسهيلات خصيانية وسلطانية أحياناً، لأن العادة

جرت أن يغادر القصر حريم كل سلطان بعد موته لإفساح مجال للمحظيات الجدد.

ويقال إن السلطانة «روكسلانا» زوجة سليمان القانوني هي التي حولت «الحريم» إلى مؤسسة متكاملة، فقبلها كان للجواري والمحظيات قصر قديم، مكان جامعة استانبول الحالية، لكن «روكسلانا» وبسبب تسلطها على أهم خلفاء العثمانيين قاطبة نقلت وصيفاتها إلى طوب قابي وبدأت توسع سكن النساء، ثم جاءت الإضافات لتحيله إلى مملكة شبة متكاملة.

وروكسلانا هذه هي التي يتهمها المؤرخون المسلمون بأنها كانت رأس الحربة اليهودية لتدمير السلطنة، فهي من تتار القرم الذين تهودوا، وقد أطلق عليها السلطان اسم «هرام» وتعني الباسمة، وفي بعض التواريخ يسمونها «خرم» ومن حسن الحظ فإن صورتها موجودة في القصر، وهي الحق يقال فولاذية أكثر من تاتشر، ومغرية أكثر من مارلين مونرو، ولها عيون بقرية واسعة كبحيرة من الفتنة لو جدف فيها أربعون بحاراً لأربعين يوماً ما وصلوا إلى أي حدود أو قرار.

والقرار في «طوب قابي» «كان لروكسلانا مرتين، الأولى بتسلطها على زوجها والثانية بوصايتها على ابنها سليم الثاني، وهذه أهم من الأولى. ففي الحريم السلطاني أهم قاعة لأم السلطان، وليس لزوجته. أما المحظيات، وهن على مراتب، فمثل جنود الاحتياط يستدعين وقت الحاجة إلى الغرفة التي يكون فيها السلطان، وأقواهن من تلد له ويسمونها خدين أفندي.

وغالباً ما تكون غرفة السلطانة الأم المكان الذي يتم فيه اصطياد السلطان، فهو وحين يأتي صباحاً لتناول القهوة مع أمه تتسابق الجواري الحسان إلى تقديمها لينلن الحظوة والرضا، فمن وقع عليها الخيار تستدعى للاحتياط، ثم تسرح صباح اليوم التالي.

ويحكي خبراء الحرملك العثماني عن أسلوب آخر، فيقولون إن «جواري الإقبال» وهن المختارات من مئات مَن يرقصن ويغنين للسلطان في حفلات السمر وكل من يقع عليها الاختيار، وتلقى الرضا والقبول، يعطيها السلطان منديله، فالمنديل السلطاني جواز عبور إلى «غرفة العمليات»، وكل من تحمله تكون موضع حسد البقية، وحين يوزع السلطان أكثر من منديل يأتي دور الخصيان في تنظيم الدخول والخروج حسب الرغبات السامية.

وكان يقال عن الحريم السلطاني إنه مثقف، لكن لا توجد من آثار ثقافته هذه الأيام غير مكتبة السلطان أحمد الأول، ذات النقوش البديعة. أما أكبر المخادع السلطانية وأجملها، فمخدع السلطان مراد الثالث الفسيح الذي تكثر فيه الطاقات والنوافذ، وسرير السلطان كسرير «يوليسيس» في الأسطورة، مثبت إلى الأرض والجدار، لكن بينلوبي ليست هناك، ولا جواريها، فمعظم جلسات الجواري حين لا يكن في حلقات التآمر مع الخصيان في غرفة الفواكه، وهي حجرة عجيبة على جدرانها كل صور الفاكهة والغلال والزهور، لكن دون ذوق ولا ترتيب والجلوس فيها أكثر من مرة يصيبك بالصداع، ويجعلك تقاطع الفواكه الطبيعية -وليس الإنسانية- إلى آخر العمر.

وفي «الحرملك» مكان يسمونه «القفص» وهو ليس لحبس النساء إنما لسكن الأمراء الذين يتم اختيار ولي العهد منهم، وربما كان هؤلاء

لا عمل لهم في الشتاء غير التحلق أمام النار والانتظار، فالمدفأة المذهبة في قاعة «القفص» أضخم مدفأة تقع عليها العين في ذلك القصر الكبير، وسقف القاعة يذكرك –إذا نظرت إليه ولم تصب بالدوخة من كثرة نقوشه– بطاولة زهر مزخرفة بفحش وابتذال.

وغالباً ما يظل القسم الخاص بجواري «الإقبال» مقفلاً لأسباب غير معروفة، فالحفاظ على حرمة السلاطين ليس في البال طالما أن كل ما كان لديهم من ملابس وصور وأوراق معروض في بقية أروقة القصر، وربما هذا مما يغيظ زوار طوب قابي من غير المسلمين، فهؤلاء يذهبون ليشاهدوا الحمام المرمري للخليفة وغرف جواريه ومحظياته، ويصابون بخيبة أمل كبرى حين يجدون المخادع التي ألهبت مخيلتهم مقفلة على ذكرياتها منذ اختفاء اسم الآستانة.

ومن الصور النسائية المعروضة في قسم الحريم وبقية الأروقة تدرك أن معظم سلاطين بني عثمان كانوا يفضلون الجواري البيض المجلوبات من بلغاريا والقفقاس، وهم بذلك يخالفون وصية عبدالملك بن مروان الذي كان خبيراً بالجواري في وقت مبكر، ويؤثَر عنه في تقسيمهن قوله: «من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد، فليتخذها رومية». والظاهر أن كل من دخلن قسم الحريم في طوب قابي كن من الروميات البيض «الملظظات»، فالرشاقة ليست الصفة الأهم بين جواري السلاطين في مختلف عصورهم، فقد انهارت السلطنة ونظام التسري مايزال قائماً ومعترفاً به قانونياً إلى السنوات الأولى من حكم أبي الأتراك «أتاتورك».

واللافت للنظر في مسألة الرقيق أنه لم ينتهِ بفتوى ولا بتشريع في الدول الإسلامية –باستثناء تركيا– لكنه انتهى بفعل عوامل التطور

الاجتماعي، والمقصود هنا الرقيق الفعلي الذي يباع ويشترى، أما حالة الرق، وخصوصاً المؤنث، فبعض نساء القرن العشرين يحسدون جواري القرون الوسطى على بعض حقوقهن التي توفرها أحياناً البيئة الراقية قبل القوانين.

إن القسم الأهم في «طوب قابي» بالنسبة للزوار المسلمين ليس «الحرملك» إنما جناح البردة الموجودة في منتصف القصر تماماً بين «فيلا بغداد» ومكتبة السلطان أحمد الثالث، فهناك بردة الرسول صلى الله عليه وسلم التي خلعها على كعب بن زهير بعد إنشاده القصيدة اللامية الشهيدة:

**بانت سعاد فقلبي اليوم متبول  متيـم إثرها لم يفد مكبول**

وقد حصل عليها سلاطين بني عثمان من آخر خليفة عباسي، وحفظوها في ذلك المكان مع سيف الرسول صلى الله عليه وسلم وخاتمه وشعرة من لحيته الكريمة، غلفوها داخل زجاج وأحاطوها بإطار ذهبي، ومنطقتها هي الأكثر ازدحاماً في القصر كله، وهناك في حجرة مجاورة «ذو الفقار» وسيوف الخلفاء الراشدين وسيف خالد بن الوليد، أما مفاتيح الكعبة المشرفة في عدة قرون، فموزعة دون ترتيب تاريخي بين حجرة البردة وقاعة السيوف.

وقصر طوب قابي ليس الأفخم من حيث العمارة، فالفخامة الحقيقية في جامع السليمانية الذي بناه سليمان لروكسلانا، ووضع فيه المهندس سنان عبقريته العمرانية كلها ومات قبل أن يكمله، فأتمه مساعدوه، وهناك أيضاً قصر «دولمة بهجة» الذي بني أصلاً للمفاخرة.

أما العمارة الأقل شأناً فتجدها منذ أيام محمد الفاتح في حصن «روفالي حصار» الذي بناه ذلك السلطان ليقطع الإمدادات التي كانت تصل إلى البيزنطيين عن طريق البحر الأسود.

إن استانبول بعمارتها وأساطيرها وخرافات محظياتها وجواريها مدينة شاسعة الفتنة تلطف مزاجك مهما كانت درجة الغيظ التي تصلها وأنت عليها، فلو كنت تغلي لابتردت بعد أول نظرة للبوسفور الذي أرسل إليه حافظ إبراهيم التحية ذات يوم مع الخزامي:

**ما الذي أجراك يا ريح الخزامى**

**بلغي البوسفور من مصر السلاما**

وفي استانبول وبين كل استراحة وقصر تحس، فعلاً وليس قولاً فحسب، أن المدن كالبشر لها أرواحها وشراييها وصفاتها، فالمدن كالنساء لا تحبهن لجمالهن فقط إن لم يختلط ذلك الجمال بذكاء وفطنة وخفة دم تجدها جميعاً في «استانبول-الآستانة» وفي صورة روكسلانا السلطانة التي تلخص عصراً ساخناً ذهب وظل أريجه في الردهات وعلى أغصان الشجر، وفي نقوش حية على الجدران تعلقت بها ذات يوم أبصار وهيفة لنساء فتن كل من حولهن فى تلك المدينة الفاتنة.

# (4)

# فيينا بعد أسمهان

دانوب... عامد النظر... لكنه –وبالإذن من شتراوس وشولوخوف– ليس أزرق، فهو يتراوح بين الأصفر والأخضر بحسب كثافة الغيم، وحركة الظلال، ورغبات الروح التي تعلو وتهبط، وتضطر أن تسافر مع الجسد إلى الضواحي، فليالي الأنس ليست في فيينا إنما في ضواحيها، حيث الألف حانة والموسيقى التي تصدح من كل الحدائق. ولم تكذب أسمهان ولا خدعتنا، وما ينبغي لها، فقد كانت تتجمل وتقر الوقائع، فحين نكون مع من نحب تصبح كل ليلة قمة ليالي الأنس، وكانت –حينذاك– مع أحمد سالم الحبيب الذي سرقته من تحية كاريوكا وتزوجته، فلما اتهمته في «ليالي الغم» بالقاهرة أنه حاول قتلها واستدعوا الست تحية للشهادة وسألوها إن كانت تحقد على أسمهان لخطف أحمد سالم منها. قالت: بالعكس، لقد قدمت لي بتخليصي منه أكبر خدمة في حياتي! وإن كانت أسمهان لم تكذب وطلبنا منك ألا تصدقها، فلا تستغرب وتتهمنا بالتناقض، ففيينا ليست روضة من الجنة ولا «حتة» من الجحيم، إنها ككل مدن الله الحلوة ومخلوقاته الأنثوية الفاتنة تغري وتغوي وتقلق، وأحياناً تصيبك بالضجر والتثاؤب

خصوصاً «عندما يأتي المساء» وتقفل المتاحف والقصور التاريخية أبوابها، وتظل أمامك مجموعة شوارع ومقاه مضجرة حول كاتدرائية «ستيفانزدوم»، فإما إلى «هافيلكا» حيث كان يعسكر «فرانزكافكا»، أو إلى «لاندمان» التي طوّبوها باسم «فرويد» لكثرة ارتياده لها في أواخر القرن التاسع عشر أثناء عكوفه على إتمام كتاب «تفسير الأحلام» قبل أن يغني عبد الحليم بقرن «بحلم بيك أنا بحلم بيك». ولنستعذ بالله فوراً من ذكر هذين الاسمين فرويد وكافكا، فأبسط مدينة في الجغرافيا أنتجت أعقد شخصين في التاريخ، وهذان لا علاقة لهما بليالي الأنس، فتلك الليالي كانت تعقد في القصر الإمبراطوري الصيفي «شونبرن» الذي شهد أحزان الإمبراطورة «ماريا تيريزا» وأفراح الإمبراطور نابليون بونابرت الذي كان يكمل كل غزوة عسكرية بواحدة جنسية، وفي فيينا خالف مبادئ الثورة الفرنسية وتزوج من أميرة من آل «هابسبورغ» الذين حكموا النمسا سبعة قرون، وأنتجت تلك المصالحة الإمبراطورية مع أعرق أرستقراطيات أوروبا نابليون الصغير الذي مات بالسل في عشرينه، وبقيت في القصر صورته بخدوده الموردة، وبجانبها السرير الذهبي الذي أهدته بلدية باريس للإمبراطورة ماريا لويزا ابنة ماريا تيريزا الزوجة المنكودة والمنكوبة بصفقة زواجها من نابليون لينام عليه الطفل الذي يسميه التاريخ الفرنسي «الصقر الصغير». ولعل ماريا تيريزا أشهر أرملة في أوروبا قبل الملكة فيكتوريا. فقد ترمّلت بعد أن خلفت من رجل واحد ستة عشر أميراً وأميرة زوجتهم جميعاً من ملوك وملكات القارة، فكان لها في كل بلاط نفوذ، وأشهر بناتها الأميرة المنكودة الثانية «ماري أنطوانيت» التي طار رأسها بالمقصلة الفرنسية بعد حكاية «البسكويت»، وبذا

تكون الإمبراطورة النمساوية قد صاهرت الملكية، وصاهرت الثورة، وخرجت صفر اليدين من الصفقتين.

وفي قصر «شونبرن» في ضواحي فيينا، وبعد أن تعبر بمخدع الإمبراطورة الأم الذي صار بعدها مخدعاً لنابليون ما بين 1805 و1809، تصل بعد الغرفة التي زخرفها الأولاد هدية للأم إلى «غرفة المليون» التي أخذت اسمها من تكلفتها، فقد تكلفت مليون جيلدر ذهبي في سنوات القحط والجوع، ويا ليتها تبهج العين، فخشبها المنشور من شجر الورد البرازيلي يزيدها قتامة، ولولا الرسوم الأصلية، وأوراق المخطوطات الهندية التي تعود إلى القرن الثاني عشر، لما كان فيها ما يغري بالنظر غير صورة الأرملة الحزينة «ماريا تيريزا» التي لبست الأسود خمسة عشر عاماً قبل أن تلتحق بزوجها وحبها الأوحد إلى الرفيق الأعلى.

لقد كان الإمبراطور «فرانسيس ستيف أوف لورين» أميراً مخلوعاً حين أحبته ماريا تيريزا، ومراهقاً غريباً لجأ إلى النمسا بعد أن احتلت فرنسا إقليم اللورين الذي تتنازع مع ألمانيا على حكمه وحكم الإلزاس منذ عشرات القرون. وبعد نظرة وابتسامة وموعد وقبلة، وما هو أكثر وأعمق، صار الأمير الغريب ملكاً على قلب الإمبراطورة وبلادها. وظلت كنساء عصرها مكتفية بالحكم من خلف الستائر المزركشة، وتلك مسائل لا تخفى على العيون المدربة كعيون الفنانين –مثلاً– ففي صدر إحدى قاعات القصر صورة للعائلة الهابسبورغية أيام «ماريا تيريزا» وزوجها والإمبراطورة في الصورة تشير بإصبعها إلى صدرها وكأنها تقول: أنا التي أحكم بينما إصبع الإمبراطور تومئ نحوها مؤكدة أنها

هي التي تحكم فعلاً وقولاً، وبالنظرية والتطبيق، ففي حالات الحب الحقيقي نادراً ما يفكر العاشقان بالتفاصيل والفتافيت.

وأن تحزن امرأة على زوج راحل وتلبس السواد بعده كل تلك السنين مسألة لم تعرفها البلاد قبلها، لكنها تكررت في حالة الملكة البريطانية فيكتوريا التي لبست السواد إلى آخر عمرها حزناً على ألبرت، وكادت أن تكون نموذجاً للأرملة كما يراها المجتمع. ولولا التنقيبات الحديثة في سيرتها، ولولا فيلم «مسز براون» الذي أوحى بوجود عشيق اسكتلندي لملكة بريطانيا العظمى، لما عرفنا عن ذلك التاريخ السري شيئاً، وقد حملت فيكتوريا لقب إمبراطورة اضطراراً بعد أن صارت إمبراطوريتها لا تغرب عنها الشمس. ويقال في التاريخ البريطاني إن كل ودها لرئيس وزرائها دزرائيلي تشكل بعد أن نجح في إقناع البرلمان بمنحها ذلك اللقب الإمبراطوري الذي لم يستخدمه في بريطانيا قبلها ولا بعدها أحد.

فهل نفترض بعد الأرملة ماريا تيريزا، والأرملة فيكتوريا، أن حكايات «الأرملة الطروب» و«الأرملة اللعوب» اختراعات عربية بحتة؟

الأرجح أن الجواب بالسلب، فأمام أرملتين وقورتين رصينتين لا تستطيعان «التخبيص» العلني بسبب المنصب، هناك في التاريخ الأوروبي مئات الأرامل الطروبات اللعوبات اللواتي يشبهن أراملنا في «ألف ليلة وليلة» وعند جميع الشعوب، فالأرملة تبكي بعين وتنظر بالأخرى إلى الرجال لاختيار حبيب أو زوج المستقبل، لكنها حين تكون إمبراطورة وتدرك صعوبات الزواج من آخر غير الراحل العزيز تضطر لكل ذلك الوقار وتلك الرصانة التي تجدها مجسدة على وجه ماريا

تيريزا في غرفة المليون وفوقها مسحة حزن لابد من وجودها على وجه كل إنسان مرهف، فمن حسنات هذه الأرملة الحزينة أنها أول من أصدر قانوناً بإلغاء التعذيب في سجون الإمبراطورية، وذلك قبل ربع قرن من قيام الثورة الفرنسية ضد صهرها الأول آخر «اللواوسة» الظالمين المستبدين.

وتجرّ المقارنة بين الأرملتين فيكتوريا وماريا مقارنة أخرى بين المدينتين، ففيينا على عكس لندن، لا توحي لك بأنها مدينة سرية غنوصية رغم كثرة كنائسها، وربما كان طراز البناء القوطي الذي يهيمن عليها يعطيها ذلك «البراح المريح»، فنوافذ العمارة القوطية وسقوفها نزاعة إلى التناسب، والضخامة، خصوصاً في الأدوار الأولى، ولا بأس بعدها أن تصغر النوافذ كلما ازداد النور بازديادك قرباً من السماء. ورغم ذلك الفرق فإن المدينتين توحيان ضمناً بالكبت، وربما كانت ضخامة الحجر هي التي تساعد على سحق وتقزيم مشاعر الإنسان في مدن النيران السرية والرغبات الدفينة في الأعماق. وقد قيض للعاصمة البريطانية من يفضح كبتها وتناقضها في شخص وسيرة «أوسكار وايلد»، وانتظرت فيينا إلى أن أتاها فرويد ليحكي عن أحلامها الجنسية المكبوتة والدفينة بتلك اللغة الموحية والمشتعلة التي تأخذ شكل الفوازير والألغاز:

**لا من نار ولا من جمر**

**يتقد ويستعر**

**مثل حب مستتر**

**لا يعلمه أحد... ماهو؟**

ولا تتعب نفسك في تفسير الحلم مع فرويد، ففي متحفه في فيينا ستجد عشرات المفاتيح والألغاز الجنسية عن هذه الشخصية التي نظرت إلى العالم من ثقب صغير في قلب فيينا وسهولها وضواحيها الشاسعة التي تشجع على غير ذلك، لكن لا تنس أن فرويد سليل العقلية اليهودية المحضة، وكذلك كافكا وغيرهما من عباقرتها ومشاهيرها.

وعلى ذكر اليهود، فإن فيينا تحتفي بكل من مر أو عاش بها، باستثناء هتلر الذي ولد فيها، ودرس الفنون الجميلة في كليتها، وهناك عشق اليهودية الحسناء التي أعطته الطعنة الأولى ورفضت حبه دون أن تدري أنها بتلك الطعنة تمهد لخراب قومها.

وفيينا التي تعلمت أن تنغلق كالمحار على أسرارها، لا تحكي كثيراً عن هتلر، ولا عن عشيقته اليهودية، ولا عن حارة اليهود «جويس كوراتيت» التي شهدت الفظائع ثم أعطت ما للتاريخ للتاريخ، وما للحاضر للحاضر، وتحولت حالياً إلى حارة حانات ومرابع ليلية وفرفشة، في مدينة الألف حانة ومليون قيثارة وبيانو.

إن فيينا ليست مدينة للأباطرة بقدر ما هي مدينة مقر ومعبر للصعاليك الكبار، وتحديداً صعاليك عالم الموسيقى، ففيها عبر كثيراً وعاش قليلاً الصعلوك الجميل «موتسارت» الذي يُرقص القلوب إلى اليوم بالناي السحري وسيمفونية «جي ماينر» التي استعار منها الرحبانيان الذائعة «يا أنا... يا أنا»، وقد عاش هذا العبقري في حي الصعاليك والملوك «غرابن»، وبه غير المنزل المعروف باسمه شقة في شارع «تليفر غرابن» قام مكانها حالياً فندق «تيجرا»، وعلى بُعد عشرة أمتار منها الشقة التي أقام فيها تلميذه «بيتهوفن» حين أتى من بون مسقط

رأسه إلى رحاب موتسارت الذي كان يصعد -آنذاك- كالصاروخ في سماء فيينا رغم مكائد ساليتري وأشياعه من الموسيقيين الرسميين.

وبقايا موتسارت الفنية في كل مكان بالعاصمة النمساوية، ففي القصر الإمبراطوري الشتوي في «هوفبيرغ» معرض للآلات الموسيقية التي عزف عليها مع موسيقي عصره، وفي القصر الصيفي «شونبرن» صورة له مع والده وهو في السادسة من عمره قبل المرحلة التي تبناه فيها أسقف ستراسبورغ، وقد رسمت تلك الصورة في وليمة إمبراطورية بمناسبة زفاف الابن الأكبر لماريا تيريزا، ومقابل تلك الصورة واحدة أخرى لمئات العربات التي جاءت من مختلف أنحاء أوروبا لمشاهدة ذلك الزفاف الذي صار حديث عصره، وفي المنعطف بعد تلك الصورة في الغرفة الصينية تمثال صغير لتشارلز، آخر أباطرة الهابسبورغ الذي حكم لسنتين ودمرته مع أسرته نتائج الحرب العالمية الأولى بعد حكم متواصل استمر من 1287 إلى 1918 للميلاد، فسبحان مقلب القلوب والعروش. وغير موتسارت فإن فيينا كانت مرتعاً لصاحب «الدانوب الأزرق» يوهان شتراوس، الذي تجد تمثاله الذهبي وهو يعزف على قيثارته في حديقة «شتاوت» التي يُقال إن أسمهان أنشدت فيها «ليالي الأنس في فيينا»، ومن المفارقات العربية الطيبة أن أحد مباني السفارة العراقية يطل على خاصرة الحديقة، ويتمدد بارتياح بين تمثالي شتراوس وبيتهوفن غير معني بكل ما يدور في الدنيا من أحاديث الحروب، ففي فيينا لا يجوز إكراماً لصعاليكها وعباقرتها غير أحاديث الأنس والفن.

ومتع شبابك في فيينا وغيرها، فالشباب متعة في حد ذاته، وما فيينا ككل المدن غير أحجار وأشجار على ضفة نهر طويل كأحزان

الأرامل، وكان يمكن أن تظل ضحلة المظهر خامدة الذكر لولا أولئك الصعاليك العظام الذين أبدعوا فيها ثم مضوا بعد أن زرعوا الفرح في كل قلب وغرسوا في كل ساحة أرغناً أو ناياً أو قيثارة تعطّر فضاء المدينة وتعزف لزوارها أحلى الألحان.

# (5)

# جسر التنهدات في البندقية

يا شراعاً وراء الأدرياتيكي يجري...

أنت في الجندول، وعازف القيثارة يحلق. لكن المغني ليس عبدالوهاب ولا المدينة عربية الملامح إلا في فوضاها المريحة وهدوئها العميق. فما أجمل أن تكون في مدينة لا سيارات فيها، عماراتها تنهض على الخشب بدل الصخور، ونصف شوارعها منذورة للمحاربين والقديسين ليظل النصف الباقي لبنات الهوى ومقاهي الأرصفة.

ويا من يجيبلي أهوى...

هكذا أرادتها أسمهان التي قصرت ليالي الأنس على فيينا ونسيت -سامحتها كل المقاهي- فينيسيا التي عرفها العرب باسم البندقية، وأطلقوا على أهلها «البنادقة» وهي ليست جمعاً لمفرد «بندوق» طبعاً مع أنه ما من صفة في العالم تصلح لإطلاقها على ماركو بولو ابن فينيسيا البار غير تلك الصفة، فالصورة التي تظهره وهو يغادر فينيسيا في رحلته الشهيرة وتاريخها -الصورة وليس الرحلة- يعود لعام 1339

ميلادية تجعل منه بسيفه القصير، وجعبة سهامه بندوقاً شرعياً لو دهنته بالفحم لما تذكرت غير شيبوب شقيق عنترة العبسي، لكن أين أنت من مضارب بني عبس وكآبتها، وهذه مدينة تهديك الفتنة على طبق من ماء أجاج، فإن مللت، فالخضرة في اللوحات المعلقة على حيطانها منذ القرن الثاني عشر، ولعينيك ما تشاء من حسان الوجوه والقفا.

ولا تسل من أين ندخل لفينيسيا فكلها مداخل، وكل الدروب تقودك إلى ساحة «سان ماركو»، وهو ليس ماركو بولو، إنما القديس مارك الحواري الذي سرق «البنادقة» رفاته من الإسكندرية في القرن التاسع الميلادي -بحدود عام 812- وتقول تواريخهم، وهي أشبه بالأساطير، إنهم كانوا أذكياء -آنذاك- لقيامهم بتغطية الرفات بشحنة من جلود الخنازير التي ما آن رآها الجمركيون المسلمون حتى رفضوا التفتيش، وخرجت السفينة باسم الله مجراها ومرساها لتحط في أكبر جزر البندقية، حيث دفن الرفات واقيمت عليه كنيسة وحولها قصر، وما أن اكتمل بناء السجن حتى قامت الدولة، فهل دول تلك الأيام وهذه الأيام أكثر من قصور وسجون وولاة يفرضون المكوس ويجلدون الرعية.

ولم يكن القديس مارك عند البنادقة الأوائل مجرد رمز ديني، ولكنه رمز سيادة وطنية بروحانياته، وأسوده التي تراها في كل مكان، فتختلط عليك دمشق بالبندقية، والمهم في تاريخ البنادقة أن القديس مارك ما أن وصل إليهم ببركاته حتى أوقفوا الالتزام بالقديس البيزنطي تيودور، وبدأوا ينافسون روما التي تتكئ على رفات القديس بطرس، ومع الوقت صاروا أذكى من يسخر الدين للسياسة، فهم

الذين استغلوا أزمة التمويل في الحملة الصليبية الرابعة عام 1204 ودفعوا أجور المحاربين لقاء أن يستولوا لهم على القسطنطينية في طريقهم إلى المشرق العربي، وقد فعلوا، وبذلك استطاعت فينيسيا أن تنتقم من سادتها الأوائل البيزنطيين، وأن تحكمهم لعدة قرون قبل أن يبزغ فجر الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي لتضع حداً لنفوذ جمهورية البندقية، وهي الثانية في التاريخ بعد جمهورية أفلاطون النظرية، والأولى من حيث تكريس مبدأ انتخاب حاكم البلاد، وهناك من يقول إن كرومويل، كان يريد لبريطانيا في ثورته المشهورة نظاماً ديمقراطياً على الطريقة الفينيسية التي ترعرعت ديمقراطيتها وتكرست على ضفاف البحر الأدرياتيكي.

وفي فينيسيا لا يمكن إلا أن تكون دميقراطياً. فالتنوع والتعدد سمة كل شي في الفنون والعمارة. وصولاً إلى السياسة والأحزاب وتعدد العشيقات، فمن فينيسيا، وسجنها انطلقت أسطورة العاشق جياكومو كازانوفا الذي هرب من سجن الجزيرة الرهيب عام 1756، ومن هناك بدأت جرأته الأسطورية بالانتشار في أوروبا كلها كعاشق لا يمنعه الحديد من النفاذ إلى أحصن المخادع.

ومع كازانوفا وماركو بولو يجب أن يشكر البنادقةُ الفرنسيين، فهم الذين رعوا أدبياً رحلات ماركو بولو ومغامرات جياكومو كازانوفا، وكان أهل فينيسيا قد رفضوا أن يصدقوا حرفاً واحداً من روايات ماركو بولو، وأطلقوا عليه اسم «ماركو المليوني» يعني ماركو صاحب «المليون كذبة» ولاحقاً سوف تتحول الصفة إلى اسم مكان، فالساحة القريبة من جسر «ريالتو»، ويبدو أنه انتقل بعد أن ضاق بيته للسكن في ساحة مجاورة، تحمل حالياً المليون الثاني.

وأهل فينيسيا عندهم حق في اتهام مواطنهم بالكذب. فقد كان والحق يقال «فناصاً» كبيراً يتخيل أكثر مما يشاهد، ومعظم ما رواه في سجن جنوة من مشاهدات لمواطن بيزا الذي كتب مغامراته، ورحلاته تم تصحيحه لاحقاً، ودعك من الصين فتلك حكاية بعيدة، وخذ مناطقنا التي عبر فيها قبل أن يصل إلى الشرق الأقصى، وسوف تجد أن بغداد بعظمتها ترد عنده في بضعة أسطر وهو يخطئ حتى في اسمها، فيعرفها في الفصل السابع من كتابه باسم بالداش... هكذا وكذلك الحال مع الموصل والبصرة اللتين قادتاه إلى قبلاي خان في منغوليا.

ودعك من ماركو بولو، فمدينته أجمل من حكاياته وتعدديتها في نظم العمارة قل أن تتكرر في مدينة أخرى، ففيها يتجاور الطراز البيزنطي مع القوطي مع الباروك في حالة رائعة من الانسجام، فمعظم ما فيها من أبنية تاريخية صمد في وجه الزمن، باستثناء المنارة التي يطلقون عليها اسم كامبانيلي التي انهارت بعد صمود ألف عام سنة 1902 فأعادوا بناءها على الفور تخليداً لذكرى غاليلو الذي نصب مرصداً فلكياً في برجها العلوي، ومن هناك رآها تدور، وصرخ بالحقيقة. لكن الكهنة أخافوه، وأسكتوه، فدارت الأرض به وبهم، وظلت تدور وتزيد البندقية جمالاً وتألقاً و«كوسمبوليتانية»، فالمدن الناجحة هي مدن كونية بالضرورة، وما كان بإمكان فينيسيا إلا أن تكون عولمية قبل عصر العولمة، ومفتوحة على كل الجهات والتيارات قبل جميع نظريات الانفتاح الاقتصادية.

وقد أثنى النقاد على شكسبير لأنه جعل من تلك المدينة مسرحاً لأشهر أعماله «تاجر البندقية»، فهناك كانت تجتمع الأقوام حول

«الذهب والجسد» كما قال التاجر أنتوني الذي أوشك أن يفقد رطلاً من لحمه لليهودي شايلوك لولا حنكة زوجة صديقه باسانيو الذي ورطه بالاقتراض. لكنه لم يورطه قطعاً في عشق تلك المدينة التي يتواصل فيها الناس بالجندول، والقيثارة، وتسوسح مارياتها أهل اليابسة ناهيك عن القبطا، والبحارة.

ولا تستطيع وأنت تعطي ظهرك للمنارة وتقف في مواجهة البحر في بيازيتا على مبعدة خطوات في عمود أسدسان مارك –أقول لا تستطيع إلا أن تسأل نفسك: في أي ركن وقف أنتوني ينتظر سفنه، وإلى أي عمود استند غاليلي ذاهلاً بعد أن اكتشف حقيقة أن الأرض تدور...؟

ومازلنا ندور في مربع صغير يجمع كل أمجاد البندقية، فما بين «بيازيتا» أمام قصر الدوق –الطليان يلفظونها معطشة دوج– إلى بيازا شان ماركو التي تشكل معها حرف L قاعدته الكنيسة والسجن، وعشرات المقاهي التي تحتضن التاريخ الأدبي لأوروبا في العصر الرومانسي. ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صارت البندقية محجاً لكل الأدباء والفنانين الأوروبيين، ولكل فئة منهم مقهاها، فمقهى «فلوريان» يفتخر بأنه كان استراحة لتشارلز ديكنز واللورد بايرون وبروست، ويقابله على الطرف الآخر من الساحة مقهى «كودري» الذي صار مقراً للجنود النمساويين الذين احتل بهم بونابرت المدينة، ولم يغادرها إلا حين بنى لنفسه أثراً في تلك الساحة ما يزال يحتفظ باسمه «الأنابولينكا». الفنانون ومقاهيهم بالعشرات، فأعمالهم الباقية شاهدة على ذلك الغرام الذي كانوا يكنونه لمدينة

فيها كل أسباب الغواية باستثناء الأفاعي الحقيقية، أما الرمزيات، فهن على ملاستهن ونعومتهن يحسدن تلك الأعمدة الرخامية التي تطل على القناة الكبرى من كل الاتجاهات لتشهد على شعب يحب الحياة بكل فنونها ومباهجها ككل الشعوب البحرية... وآه يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية... يا مسوسحة القبطان.

ولماذا فتحنا سيرة القباطنة والنساء والغوايات...؟

الأرجح أنه تمثال آدم وحواء الذي يطالعك على زاوية قصر الدوق، فالأفعى تلتف على الشجرة، والورقة الكبيرة (كأنها ورق موز) انحنت بحنان لتغطي عورة حواء، في حين وقف آدم ساهماً والتفاحة بيده أيقرطها أم يرميها؟... وقرطها. وها نحن ندفع -كما يعتقد الفنان- ثمن استمتاعه باكتشاف الحقيقة كلها قبل أن يكتشف بعضها أحفاده الذين ما تركوا تفاحة توحد ربها على غصنها.

وآه ما ماريا وألف آه ما مزارع التفاح والمانجو والعنب.

إنها الغواية، وفينيسيا تغري بالغوايات كلها جملة وتجزئة، ولكنها تغوي الأحزان أيضاً، وكيف لا وفيها جسر التنهدات الذي يصل بين القصر والسجن، وقد أعطوه تلك التسمية لأن السجناء كانوا يرون النور للمرة الأخيرة من نافذتيه الصغيرتين قبل أن تبتلعهم أقبية المبنى المجاور، حيث التعذيب جزء من اكتمال العدالة الكلاسيكية. ففي السجن بعد جسر التنهدات بقيت غرفة التعذيب على حالها، وفيها السياط والعصي، والدواليب والبكرة الخشبية التي يعلقون منها السجين إلى السقف ليصبح أكثر قرباً من السماء في رحلته النهائية.

وفي غرف تعذيب البنادقة، وهي من القرون الوسطى، وتشبه بعض السجون العربية المعاصرة، طاولة خاصة يجلس عليها القاضي أو من ينوب عنه أثناء التعذيب ليكون مستعداً على الدوام لتسجيل اعترافات المتهم المؤكدة، فبعد ساعات في تلك الغرفة الرهيبة يمكن لأي بريء أن يعترف بأي شيء ليقفل عائداً من حيث أتى، ويعبر جسر التهدات إلى الجهة المعاكسة، وهذا لا يحصل كثيراً إلا في أوقات الاضطرابات التي تفتح فيها العامة السجون انتقاماً من السجان الكبير.

وآخر تجديد لجسر التنهدات قبل هرب كازانوفا تم عام 1597 على يد المهندس أنطونيو كونتين، والاسم يذكر بالموقع المطل على غرناطة الذي يسمونه «تنهيدة العربي الأخيرة» وفيه وقف أبو عبدالله الصغير ليُلقي تحية الوداع على ملك آبائه وأجداده المفقود، ولابد أنه تنهد تلك التنهيدة التي سمعها سلمان رشدي وصنع منها رواية مخيفة. أما جسر التنهدات في فينيسيا فهو المكان المفضل للرسامين لا الروائيين، فهم هناك بالعشرات يستوحون روعة ما تركه نيكولو بامبيني، وبالوو فيرونيسي، وجاكوبو باسانو وغيرهم من الرسامين الذين أحالوا البندقية إلى متحف مفتوح، فلوحاتهم على السقوف والجدران والسلالم وواجهات العمارات المطلة على القناة الكبرى، والتي تجعل من تجربة الإبحار عبرها بالجندول والقارب تجربة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة. لكن من قال إن بعض الحقائق لم تكن قبل قرون خيالاً محضاً؟ ومن منع أخيلتنا من التحول إلى وقائع في مدينة تغري باقتراب المباهج، وتشعل إلى أقصى حدود الوهج نيران المخيلة.

# (6)

# ابتسم أنت في دبلن

لا أعرف لماذا أرتبك كلما اقتضت الظروف أن أقابل امرأة جميلة، عندها تصيبني تلك الحالة التي يطلق عليها شكسبير لحظة تصادم الجيشين، وهذا تعبير موغل في البلاغة الشاعرية، يلخص حالة البعثرة التي تصيب من ترتجف عروقه أمام الجمال البشري الملهم.

حين يلتقي الجيشان للمرة الأولى تحصل الهزة التي لا يحبط بها الوصف، فتتناثر الأجساد على مساحات شاسعة، وترن السيوف وتتلاطم الدروع، وتتطاير السهام فوق الجانبين، فلا تفيق الجحافل لنفسها إلا بعد ساعات من امتصاص الصدمة.

الشيء نفسه يحصل عند مقابلة امرأة جميلة، يلطمك جمالها كمقدمة الجيوش البربرية، ويبعثرك على مسافات طويلة، فلا تفيق لنفسك إلا بعد حين من الدهر.

صدمة الجمال أقوى من صدمة الكهرباء، والجاذبية الأنثوية لمن يستطيع أن يحسها، حالة من انعدام الوزن، ولحظة نشوة لا تستطيع إحداثها كل خمور العالم.

ولأمر ما وحكمة لا تدرك، تحمل المدن صفات النساء، وتقبل كل ما أفعال الحب والكره والإهمال والهجران والمغازلة.

مدينة تحبها لأول نظرة، وأخرى تقرر مقاطعتها وعدم العبور فوقها، وثالثة تحب أن تنادمها، وتمشط جدائلها الممتدة إلى البحر، وتداعب راحتها المستحمة على رمال الشاطئ. وصدق أو لا تصدق، فللمدن ارواح كالبشر. حيث تجد واحدة سمجة الروح، واخرى سمحة، وثالثة طروب لعوب غنوج.

ولقد ابتليت يافعاً بحب المدن، فرحلت وتشردت، وخاصمت وصالحت، وبعد نصف مليون مدينة وجدتني أعشق الإسكندرية بعد دمشق وحلب ثم أضفت إلى القائمة دبلن.

الإسكندرية حنت عليّ أكثر من أية مدينة أخرى، أطعمت روحي من سحرها وآمنت خوفي من القباحات غير المستحبة التي تمارسها ضد عشاقها المدن الأخرى.

ولم أنتظر طويلاً لأعرف كم ذهبت في قلبي عميقاً تلك المدينة، فبعد ساعات قليلة من وصولي إليها، وارتشافي لكأسين سريعين في «سيسل»، أدركت أن عهداً من المحبة الطويلة على وشك أن يبدأ. ولم أستغرب حين قيل لي فيما بعد، إن لورانس داريل كتب رباعيته الشهيرة في ركن من أركان ذلك البار العتيق، الذي قدم المدينة إلى قلبي بطريقة مليئة بالعفوية والحميمية.

ومن حسن حظي أني وصلتها لأول مرة شتاء، قبل موسم الغزو الذي يقوده سنوياً ضدها سكان القاهرة، فاستطعت أن أتذوق قهوة

الصباح في «سان ستيفاني» و«سان جيوفاني»، ثم أنقلب غرباً فأغوص في شوارعها الخلفية العتيقة، بين قلعة «قايتباي» و«الأنفوشي»...

مرسيليا هي الأخرى غجرية وجدت خطأً في العصر الحديث، ولا تزال تقاوم للحفاظ على عادات الغجر وطباعهم وحبهم للرقص والحرية.

وقد ظننت لحين من الزمن أن قلبي قد شاخ، وأقلع عن حب المدن بعد دمشق والإسكندرية ومرسيليا، والعاهرة التي يحبها كل أحد، باريس. لكن المفاجأة كانت بانتظاري في أيرلندا فأضفت دبلن إلى قائمة عشيقاتي في قائمة عشق المدن.

وقد حاولت حين زرتها باعتباري قد شببت عن الطوق، وتجاوزت طور المراهقة، أن أفهم السر في جاذبية بعض المدن.

ولم أبحث طويلاً لأكتشف أن الناس هم أول مفردات الحب المديني، وأن العلاقة الحميمة التي يقيمها أهل المدن المتسامحة والمحبة نعمة لا تقدر بثمن يندر أن تجدها في المدن المكشرة، ففي دبلن تحس نفسك صديقاً لأي عابر، وإذا ذهبت إلى بار الشعراء المجانين «دهني أند نيزبتس» اكتشفت أنك تقضي أمسية عائلية كأمسيات الميلاد تتكرر يومياً على مدار السنة.

هناك مدن تقول لك ابتسم نظرياً، فتدخل المدينة لتجد نفسك بعد يومين تجهش بالبكاء من لاإنسانية المعاملة التي تلقاها من سكانها الأصليين، فلا تبتسم إلا بعد أن تغادرها، الأمر الذي يقتضي تعديل بعض اللافتات.

دبلن تختلف لأنها مدينة بلا ادعاء، لا تقول لك ابتسم على مدخلها، لكنك تبتسم وتقهقه حتى تستطيل أشداقك من كثرة القهقهة والابتسام.

حين تذهب إلى ساحة ماريان في دبلن حيث عاش ومات أشهر كتاب أيرلندا، تجد نفسك راغباً في نصب خيمتك إلى الأبد على بوابة بار «موليمان»، لان ساحات قليلة وبارات اقل في العالم تعبق بالتاريخ القديم، وتنقله طازجاً إلى أنفك كلحظة عبورك في بيارة برتقال.

في دبلن قالت لي أيرلندية تتحدث عربية مكسرة: لماذا لا تذهب يا هذا إلى شارع الصقور، وماذا أفعل هناك؟ قالت: تستطيع أن تقرع بوابة ليوبولد بلوم بطل «أوليسس» أشهر رواية في التاريخ المعاصر.

ولم أكذب خبراً، فاتجهت ذات صباح إلى الرقم 7 بشارع الصقور، لأجد أن صاحب بار «بيلي» قد عرض عظام جيمس جويس للبيع دون استحياء، حين خلع بوابة منزل أحد أصدقائه الذي أوحى له بشخصية ليوبولد بلوم، وأعاد تركيبها في باره لجذب الزبائن.

وقرعنا الباب فلم يرد علينا جويس ولا أوليسس، فتركناهما واتجهنا إلى المنزل الذي عاش به «وليم بتلر بيتس» في «هوث» ظناً منا أن الشعراء أكثر كرماً وحسن ضيافة من القصاصين، وكتّاب الروايات، وفي «هوث» وقفنا أمام المنزل الذي عاش به بيتس بين 1880 و1883، وكانت على البوابة هذه المقطوعة الناعمة لذلك الشاعر العظيم:

**بعثرات أحلامي تحت قدميك**

**حاول الوطء بنعومة**

**فأنت فوق أحلامي تمشي**

وقد حسدت هذا الشاعر، الذي كان شاعري المفضل دائماً، على ذلك البيت البديع المعلق بين البحر والجبل، ولم يكن صاحبي مبالغاً حين كتب تلك المقطوعة، لأن «هوث» من المناطق القليلة التي تستطيع أن ترمي أحلامك وتنشرها تحت أقدامها، دون أن تندم، فروح معظم المناطق الأيرلندية من النوع المتسامح الكريم.

وليس ييتس صاحب هذا البيت الجميل في هوث. هو الشاعر الوحيد الذي سرقه الإنكليز من الأيرلنديين، فقد سرقوا منهم برنارد شو وأوسكار وايلد وجوناثان وسويفت.

المهذبون من نقاد الإنكليز يسمعون أدب هؤلاء «إنكلو-أيريش»، والذين خلعوا الحياة بالمرة يسمونه أدباً إنكليزياً.

لقد قال ليفنغستون مرة إن الإنكليز فعلوا بالأيرلنديين أكثر مما فعله الألمان باليهود، وكان محقاً بذلك، لأن كامل تراث ذلك الشعب سرق، وسجل على أساس أنه تراث إنكليزي.

وحتى الفرنسيين داخلهم الطمع، فبدأوا ينازعون الأيرلنديين على بيكيت بسبب إقامته في باريس، وكذلك على جويس، والقائمة طويلة، فالعبقرية الأيرلندية كالعربية دوماً تزدهر بعيداً عن أوطانها.

ومن العبقريات الأيرلندية التي ازدهرت خارج أيرلندا لورد الصحافة الإنجليزية «تشارلز نورثكليف» مؤسس «الديلي ميل» البريطانية عام 1896 التي كانت حدثاً كبيراً في وقتها بوصفها جريدة الإنسان المشغول الذي يريد كل الأشياء قصيرة ومختصرة كتنورات النساء.

وكان هذا الأيرلندي قد بدأ بصحيفة صغيرة في ضواحي دبلن أطلق عليها اسم «أجوبة على المراسلين»، فلما نجحت اختصر المراسلين وأبقى على «الأجوبة»، ومنها قفز ليؤسس عشرات الصحف الشعبية في بريطانيا وأيرلندا أشهرها «الديلي ميرور» التي ما تزال إلى اليوم من أكثر الصحف البريطانية توزيعاً، لكن تأثيره غاب عنها حين اشتراها بعده النصاب روبرت ماكسويل.

فقد كتب ذلك الشاعر مسرحية في نهاية القرن التاسع عشر، جعل ملكها والشخصية الرئيسية فيها يستعين بمرتزقة ليبيين، وقد احتار النقاد طويلاً أمام هذا اللغز، لأن ييتس شديد التفحص والتمحييص والاطلاع على التراث القديم، فلماذا اختار الليبيين بالذات؟ وظل الاعتقاد سائداً بأن عند ذلك الكاتب وثائقه التاريخية الخاصة التي تبرر وجود الليبيين في أيرلندا منذ قديم الزمان حتى جاء «بوب كوين» ففسر هذه النقطة الغامضة من التاريخ الأيرلندي، وهذه قصة أخرى جديرة بالرواية والتسجيل.

لقد أخرج «بوب كوين» منذ سنوات فيلماً سماه «الأطلسيون» بحث فيه عن الجذور القديمة للشعب الأيرلندي، وكانت النتيجة مدهشة للجميع حين اكتشف «كوين» أن الأيرلنديين قدموا من شمال أفريقيا، وبالتحديد من ليبيا وتونس والجزائر.

وبدأت فكرة الفيلم حين استمع المخرج الذي يقيم في شمال أيرلندا إلى إذاعة الجزائر في ستينات ما بعد الاستقلال، فلاحظ أن الموسيقى والألحان والأغاني قريبة كل القرب من الفولكلور الأيرلندي، وحين استقرت هذه الفكرة في ذهنه، استقل أول قارب

وذهب إلى شمال أفريقيا ليعود بنتائج مدهشة ساعدته المكتشفات التاريخية والأثرية وفولكلور الشعوب على تثبيتها وتسجيلها كنظرية قابلة للنقاش.

لقد اكتشفت «بوب كوين» بمساعدة اللغويين، أن جذور لغة «الجيلك» الأيرلندية القديمة تعود إلى ثلاثة مصادر من حيث التركيب، مصدر اللغة العربية الفصحى، ومصدر اللغة البربرية الجبلية، وثالثها مصدر اللغة المصرية القديمة.

ولاحظ «كوين» أن علماء الآثار اكتشفوا جمجمة للقرد الليبي المعروف بـ«الإيب»، ففسر بذلك لغز وثائق بيتس الذي أشار إلى تواجد مرتزقة ليبيين مع أحد ملوك أيرلندا.

والملاحظ أنه بعد العودة إلى هذه الجذور، بدأت حركة نشطة لترجمة الأدب العربي لتعريف الأيرلنديين به، ويقوم بهذه المحاولات أشخاص كثر منهم «جين أوهانلن»، «روث بنسون»، و«جون ماير».

وإلى جانب بوب كوين صاحب الثقافة الواسعة التي قدمت كل هذه المكتشفات، هناك الروائي الأيرلندي «ديفيد هانلي» صاحب الأربعة قراء وخمسة ملايين مستمع، وهذه نكتة للتشنيع عليه من زبائن بار «دهني آند نيزبتس» لأن شهرته كمذيع تفوق شهرته ككاتب. ورغم هذا وذاك، تظل شهرة أيرلندا الحقيقية بالشعر والموسيقى، فالأيرلنديون شعب مجنون بالشعر، قراءة واستمتاعاً وتأليفاً، وأبرز شعرائهم المعاصرين الذين لم يتعرف عليهم العرب جيداً «ديفيد كانلي» و«شيمس هيني» الذي لم نتعرف عليه عربياً إلا بعد فوزه بنوبل.

أشياء كثيرة يمكن أن تقال عن أيرلندا وعن دبلن بالذات، ففي تلك المدينة التي ألهمت جويس مجموعته القصصية الرائعة «أهالي دبلن» نهر من العطاء يتدفق على أكتاف ذلك الشعب الطيب، ساكن تلك المدينة التي تسحرك حتى الغواية، فتضيفها إلى قائمة المدن التي يمكن أن تعشقها بجنون، وتغادرها وبقلبك شيء من دبلن، كذلك النحوي العربي القديم الذي مات وفي قلب شيء من حتى.

# (7)

# سترانفورد مسقط رأس شكسبير

الحيرة أمام حياة شكسبير لا تقل عن الحيرة أمام طفولة المتنبي، فالاثنان قدما من مجهول لمعلوم، وكالنيازك والنجوم أشاعوا ذهباً، وبقي ضياء الفتنة المقطرة في عسل الكلام. ورغم كل ما قيل عن ماضيه المتواضع لم تثبت تهمة سرقة الغزال على شكسبير، ولم يترك سترانفورد ليغطي على سقطته، لكن كان في العائلة أصحاب سوابق، فجده الأكبر علقوه على الشجرة بتهمة السرقة، وبعد اللصوصية بدأ رجال العائلة يبحثون عن مهن بسيطة، فقيل إن الجد المباشر لشكسبير كان قصاباً بليغاً يرثي كل ثور بقصيدة عصماء قبل أن يذبحه.

وتمضي الرواية الشعبية، فتزعم أن الشاعر الكبير نفسه عمل كصبي قصاب لفترة من الزمن، وهذه مهنة لا تظهر في المتحف الذي تعبر به قبل الدخول إلى المنزل الذي ولد فيه شكسبير في شارع «هنلي»، فأول ما يصادفك مجموعة من القفازات التي كان والده يصنع مثلها. فهو صانع قفازات أباً عن جد، وتلك مهنة لا يوحي بها

الاسم، فشكسبير بالإنجليزية تعني هز الرمح أو «هاز الرمح»، وهي صفة تليق بالفروسية والفرسان، وما من هذا في العائلة الشكسبيرية شيء، فهي متواضعة إلى درجة يشكو منها التواضع نفسه. ولم يبالغ كارلايل كثيراً حين كان يصر على إطلاق صفة «فلاح ستاتفورد» تحبباً على شكسبير، فكل شيء في بيوته ومتحفه ينطق بمفردات العصر الزراعي الأول وتقاليده البدائية المتواضعة.

وفي المتحف الشكسبيري قبل دخول المنزل نموذج مدرسة ولوح حجري، ثم شهادة زواجه من «آن هاثاوي» وخارطة طرق ضوئية توضح خط سيره ما بين ستراتفورد ولندن، وفي المنتصف أكسفورد، حيث كانت له عشيقة هناك يستريح في سريرها، وقد أنتجت تلك الاستراحات الشاعر وليم دافنانت الذي كان يزعم فخوراً أنه ابن غير شرعي لشكسبير.

ثم يأتي الأهم، وهو ركن المخطوطات التي كان يعتمد عليها في مطالعاته التاريخية، وقد وضعت بأناقة أمام مكتب خشبي متواضع يجلس عليه شكسبير، وأبرز تلك المخطوطات تاريخ روبرت هولنشيد الشهير المعروف عن إنجلترا وسكوتلندا وأيرلندا، والنسخة المعروضة بصفحاتها القشيبة من طبعة شهيرة أنجزت حين كان شكسبير فتياً عام 1587.

وغير «هولنشيد» اعتمد شكسبير كما هو معروف اعتماداً مفرطاً على «بلوتارك» خصوصاً في مسرحية «أنطونيو وكليوباترا» وكانت شائعة في زمنه نسخة ترجمها «نورث». والملاحظ أن شكسبير تألق تألقاً خاصاً في تلك المسرحية، ووقع قبل قرائه ومشاهديه في

غرام شخصية أنطونيو الروماني النبيل الذي خسر حربه وحبه لأنه أنفق على الملكة الشرقية -كما يقول بلوتارك- أثمن ما يملكه الإنسان، وهو الزمن، ففي الوقت الذي كان فيه خصومه يستعدون لحربه تمكنت منه «شهوة الخليلات»، وكان يصرف جل وقته مع كليوباترا التي كانت تمتلك عشرة أنواع من الدهاء باعتراف أفلاطون، وكان وقته المعطر والمبخر معها تنفيذاً لاتفاقية متعة عقداها معاً وسمياها «أمبميتوبيون» وتعني «ما من شيء في الحياة يعادل ما نفعله».

ولعل شكسبير كان يفكر في تلك الاتفاقية الغرامية التي أشار إليها «بلوتارك» حين كتب على لسان أنطونيو في المشهد الأول من المسرحية حين جاءه الرسل بأنباء روما:

**ألا فتلهو روما في نهر التيبر**
**وليتهافت صرحها الشامخ كقبة عظيمة**
**فالممالك من روث وتراب يطعم البشر والحيوان**
**إن مجد الحياة في ما نفعله نحن**
**وحين يتعانق عاشقان مثلنا**
**فلن يجد العالم لنا نظيراً.**

ويجمع نقاد العالم على أن المشهد الافتتاحي في «أنطونيو وكليوباترا» من أروع ما خطه يراع، وهو متفوق على كل ما كتب شكسبير من مشاهد افتتاحية، والفضل بعد معلومات «بلوتارك» لتعلق الشاعر بتلك الشخصية المحبوبة التي تجيد الحب والحرب والمزاح وتغتني بكرم الروح، فأنطونيو حسب «بلوتارك» كان ينفق كل ما يصل إليه، ونادراً ما يحاسب ضباطه على ما أخذوا أو صرفوا، وفوق ذلك فقد

كان مولعاً بصحبة النساء، ويعرف كيف يخاطبهن ويدخل إلى قلوبهن ويطيعهن. فقد علمته «فولفيا» زوجته شقيقة القيصر طاعة النساء، وهي عبارة تقولها كليوباترا ساخرة في المسرحية لكنها صادقة كل الصدق، فجزء من روح الفروسية منذ فجر التاريخ ألا ترد لامرأة أمراً مهماً بالغت في شططها ودلالها.

وفي مكتب شكسبير بمتحفه طبعة من «يوتوبيا» توماس مور الذي أعدمه هنري الثامن، وزهور وشمعة على الطاولة. أما القهوة صديقة الكتّاب منذ الأزل، فملقاة بإهمال على الأرض، وأجمل ما في ذلك المكتب المحبرة، وتلك الزاوية كلها من صنع خيال مهندس ديكور ذكي وقد لا تكون له أية علاقة بالواقع. فشكسبير كما شاهدناه في فيلم «شكسبير عاشقاً» يكتب على الأرض وفوق السرير، وفي الحانات، وهذا أقرب إلى شخصية كاتب وشاعر فيه الكثير من البوهيمية والنزق. لكن هل كان شكسبير كذلك...؟

إن من أنتج 37 مسرحية، وقصيدتين قصصيتين طويلتين وكتاباً حسب «السونيتات» لا يمكن أن يكون قد أضاع وقته بالطريقة التي يقترحها الفيلم، ويعشقها هواة الصورة التقليدية للشعراء والمؤلفين العابثين.

وعلى ذكر «السونيتات»، ففي الزاوية اليسرى بعد مكتب شكسبير صورة لـ«إيرل سوثهامبتون» راعي شكسبير وحاميه، والرجل الذي أهداه الشاعر قصيدة «فينوس وأدونيس» و«اغتصاب لوكريس» ويزعم بعض الرواة أن «السونيتات» ومعظمها في الغزل المذكر قد كتبت من أجل ذلك الأرستقراطي الشاب الذي اشتهر بميوله الجنسية الشاذة.

في حين يزعم آخرون أن «الغلام الجميل» الذي أهدى إليه شكسبير قصائد غرامه هو «إيرل بمبروك» وعند هذه التهمة عليك أن تنسى المتنبي، وتذهب بالمقارنات إلى الشاعر العربي أبي نواس الذي تغزل بالخليفة الأمين وغلمانه في عصر غلب عليه التسامح في أهواء الناس، فلكل قوم في ما يعشقونه مذاهب، وغزل الغلمان لا يخلو منه أدب أمة من الأمم الشرقية والغربية.

وبعد صورة «إيرل سوثهامبتون» الوسيم تطالعك مسرحية شكسبير، وهي مفصلة ومتقنة، وتدل على أن كاتبها لم يترك شيئاً لم يفكر به، فالسرير للزوجة والسيف للجار «توماس كومب»، وصحون المطبخ للحفيدة، وعشرة جنيهات لكل مواطن في ستراتفورد مقابل 26 جنيهاً لكل صديق في لندن، وتوقيع الوصية واحد من عدة تواقيع لشكسبير وجدت على عقود إيجار مسارح وبيوت في لندن، أما المسرحيات والأشعار فلا يوجد منها ورقة واحدة بخطه، وهذا ما دفع الكثيرين للتشكيك بصحة نسبة تلك الأعمال الأدبية العظيمة إليه، ففير «ديليا بيكون» التي تزعم أن جدها اللورد بيكون هو كاتب تلك الروائع، يزعم آخرون أن الكاتب الحقيقي إما أن يكون «إيرل أكسفورد السابع» (إدوار فير) أو «وليم ستانلي» (إيرل داربي السادس)، وآخر النظريات على هذا الصعيد ما قال به «كوفمان» الذي يرجح أن يكون الشاعر مارلو هو كاتب أعمال شكسبير المتقنة دراماياً والمترعة بالشاعرية. وهنا تظهر المؤامرة المقبولة أدبيا وتاريخيا، فالشائع أن مارلو مات إثر مشاجرة في حانة عام 1593، ومن الممكن كما يقول «كوفمان» أن يكون قد ظل على اسمه وليم شكسبير، ومن قرائن هذا الزعم أن مارلو كتب «يهودي مالطة» التي لا تختلف في المنحى العام عن الكثير من أعمال شكسبير.

ومهما قيل عن شكسبير وثقافته وحقيقته تظل الحقيقة المثبتة الواضحة أنه كان تلميذاً نجيباً في مدرسة الحياة وكاتباً جاداً، وقد بدأ متواضعاً وفقيراً، ثم اغتنى وترقى إلى أن حصل لعائلته على درع عليه اسمه وشعاره الذي يطالعك في آخر رواق المتحف، وعليه الجملة اللاتينية التي اختارها Non Sandz Rioict أي ليس بدون حقوق، وكيف يكون دون حقوق ذاك الذى مهد بكتاباته الأرض لتكريس حق البشر في الحرية والحب، فأين من ينسى تعريفاته للغرام ومنها في مسرحية «خاب سعي العشاق» تعريف يسوقه على لسان بيرون أحد الأشراف في حاشية ملك نافار:

**الحب كالطفل اللعوب**

**يرقص دون عقل ويقفز دون سبب**

**الحب يولد في العين**

**فهو مثلها يزخر بعجيب الأطياف**

**ويموج بشتى الأشكال والألوان**

**وتختلف صفاته وتجلياته**

**كاختلاف المناظر المارقة أمام العيون**

وفي منزل شكسبير حيث ولد تكتشف أن ذلك البيت العتيق ظل حانة لاكثر من قرن ونصف اسمها: «سوان اند ميدن هيد» ثم استأجرته سيدة تدعى «هورنبي» وتنقل من يد لأخرى، وأوشك بعد السيد «هيكوكز» الذي حوله إلى حانة رخيصة أن يضيع إلى أن تأسست جمعية لندنية عام 1847 من أعضائها تشارلز ديكنز، جمعت الأموال، وقامت بشرائه لتحيله إلى متحف يخلد ذكرى ذلك الشاعر الفذ.

وفي المدخل تربض على عادة البلاد الباردة مدفأة في الحائط من أضخم ما ترى العين، وأمامها سفود الشواء الذي توكل مهمة تحريكه إلى الصبيان، ولك هناك أن تتخيل شكسبير يقلب الحملان على نار هادئة، ويفكر بالهجرة من بلده. إن لم تقتلك بالضجر أماتتك بالبلادة والإهمال.

وفي الدور الثاني، حيث سجل الزوار، تجد أسماء «جون ادامز» و«توماس جيفرسون» و«توماس كارلايل»، و«وولتر سكوت»، و«جون كيتس»، و«تنيسون» و«إيمرسون» و«توماس هاردي»، وغيرهم من كبار كتاب العالم وشعرائه، وعلى الحائط سجل ملكية البيت الذي اشتراه والد شكسبير عام 1556، أي قبل ثمانية أعوام من مولد الشاعر في الثالث والعشرين من أبريل (نيسان) عام 1564.

وعلى بعد أقل من نصف ميل تقع مدرسة إدوارد السادس التي تعلم فيها شكسبير، وهي ماتزال قائمة إلى اليوم وقربها منزل جون ناش صهر الشاعر، والمبنيان كمنزل زوجته «آن هاثاوي» وأمه «ماري أردن» أدخلت عليهما تعديلات وتحويلات معمارية كثيرة غيرت ملامحهما، وساعدتهما على الصمود في وجه الزمن، وبين منازل شكسبير الخمسة التي ينصحك المرشدون بزيارتها يظل منزل زوجته هو الأجمل والأكثر تماسكاً.

وقد كانت العناية به أكثر لبعده عن قلب البلدة، ولعدم تحوله إلى حانة شعبية كما حصل لمنزل أسرة الشاعر في قلب ستراتفورد التي تحولت بفضل ابنها إلى محج أدبي ومقصد لكل متهم بالشعر والمسرح والفنون.

إن للأمكنة –ومهما عابثتها عاديات الأيام– روحها الخاصة التي تستعصي على المحو، والضياع، وإذا كانت هذه القاعدة جائزة بالمطلق، فما بالك بأمكنة حلقت فيها روح شاعر ضخم لم تمنعه رومانسيته وشفافيته من إدراك حقائق الحياة، وصراعاتها المريرة، فعاشها، طولاً وعرضاً، ومضى إلى مدفنه في كنيسة الثالثوث المقدس تاركاً خلفه عظيم الأفكار، ودرر الكلام الذي سهر عليه الخلق في أيامه، واختصموا، وسيظلون كذلك إلى أبد الدهر بينما الشاعر ينام ملء جفونه عن شواردها، ويرحب بضيوفه الكثر بتلك الابتسامة المحيرة التي يختلط فيها الخبث بالشقاوة بالتأمل في إطار من المهابة التي تضفيها العبقرية، ويرسخها توالي الأيام والحدثان.

# (8)

# أدنبرة بين القلعة والمهرجان

نظرة أولى على أدنبرة تجعلك تظن ألا شيء فيها غير القلعة والمهرجان. فقد صارت هذه المدينة العريقة عروس الشمال الأسكتلندي أسيرة نجاح مهرجانها الذي بدأ بعد الحرب العالمية الثانية في قصة جديرة بأن تروى. فكل شيء يبدأ صغيراً ثم يتعملق كهذا المهرجان الذي أوشك أن يبتلع تاريخ المدينة.

ذات أمسية عادية من أمسيات عام 1946 كان السير «رودلف بينغ» القائد الأوبرالي الشهير يتسامر في لندن مع صديقه «هنري هارفي وود» ممثل المجلس الثقافي البريطاني في أدنبرة حول قضايا ثقافية وفنية مختلفة، وفي سياق ذلك الحديث اقترح بينغ أن تتبنى أدنبرة بوصفها المدينة التي خرجت سالمة من التدمير بعد الحرب العالمية الثانية مهرجاناً فنياً تحتفل خلاله فرق الدول الحليفة بالانتصار. وبعد أيام من ذلك الحديث نقل هارفي وود الفكرة للورد بروفوست الذي تحمس لها، وبدأ الأصدقاء الثلاثة على الفور بالتحضير لأول مهرجان من مهرجانات تلك المدينة الأسكتلندية

الباردة التي كانت تنام آنذاك في الساعة التاسعة، ولا تشهد وجهاً أجنبياً وسحناً غربية إلا في المناسبات.

وما بين عام 1947 الذي شهد ولادة أول مهرجان عام 1997 الذي احتفلت فيه المدينة بنصف قرن من عمر أكبر احتفالية ثقافية عالمية، تغيرت أشياء كثيرة في حياة أدنبرة التي تحول نجاح مهرجانها إلى عبء نفسي مقلق، فمن السهل أن تنجح لكن من الصعوبة بمكان أن تحافظ على دوام الألق.

وأولى القضايا التي تقلق بال المنظمين لمهرجان أدنبرة هي قضية الهوية، فهم يعترفون دون خجل أن مهرجانهم لا هوية له، وأنه مثل كشكول الشحاذين فيه من كل صيف وكل لون، لكنهم يقولون، من باب التبرير، إن هذه الحالة نقطة ضعف وقوة في آن، فالمهرجان ليس للنقاد والمختصين ولكنه للجمهور بمعناه الأشمل، الأمر الذي يعني أن كل إنسان يجب أن يجد فيه ما يسره، ويرضي طموحه، ولا فرق في هذا المضمار بين ناقد فني كبير، وسائح عابر، أو مراهق صغير.

ونظراً لسيطرة هذه الفلسفة تضخم مهرجان أدنبرة بشكل غير معقول خلال السنوات الماضية، وأصبح عدة مهرجانات في مهرجان واحد. فهناك مهرجان السينما، ومهرجان الكتاب، ومهرجان الوشم، ومهرجان الأنشطة الهامشية، ومهرجان الأطفال، وكل هذه الفعاليات تجري في الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر أغسطس (آب) مما جعل المدينة عاجزة عن استيعاب ذلك العدد الكبير من ضيوفها وزوارها، فقد ضاقت فنادقها الكبرى والصغرى وشققها بالقادمين، وتحولت حدائقها وضواحيها إلى مضارب للخيام، ومع ذلك ظل قسم من

روادها ينام في الشوارع، أو يكتفي بالانتقال من فعالية إلى أخرى إلى أن تشرق عليه الشمس.

وبعيداً عن مشكلة الاستيعاب يخشى مهرجان أدنبرة على نفسه من فقدان الدور الطليعي، فقد كان في يوم من الأيام مختبراً جيداً لتوليد الأفكار والتيارات الغنية، وصناعة النجوم الجدد، والأسماء الأدبية المؤثرة، فالهالة التى شهدتها مسرحية «انظر خلفك بغضب» لأوزبون -مثلاً- أحد الأمثلة البارزة على الدور المؤثر لذلك المهرجان الكبير.

ويعتقد المتابعون أن تكريس النزعة التجارية والبحث عن قنوات جديدة للربح جعلا المنظمين يتحولون من فنانين أصحاب نظرة ثاقبة وطليعية إلى مجرد متعهدين ثقافيين يؤمنون الإقامة، ويستأجرون الصالات للفرق الوافدة مقابل اقتسام الأرباح.

وتنبع القيمة الحقيقية لمهرجان أدنبرة، حسب تقديري، من تجاور الهواة والمحترفين في موسم واحد، فهناك فرق ريفية لم تعرض في أي مكان خارج قراها تتاح لها الفرصة لتقف جنباً إلى جنب مع فرقة «برلين أنسامبل» العريقة التي أنشأها بريخت، وكثيراً ما تتفوق عروض الهواة على المحترفين، وتختطف الأضواء منهم، لذا أصبح مهرجان أدنبرة قبلة المواهب الشابة التي تبحث عن فرصة بإمكانياتها الفردية المتواضعة، وتنجح في استقطاب الجمهور. ففي أحد المهرجانات قام شاب فرنسي بتحويل دراجته إلى أصغر مسرح في العالم ووضع بجانبها مقعدين، وبدأ يعرض الحرب والسلام لتولستوي، فتحول خلال أسبوع إلى ظاهرة يتسابق أصحاب الصالات للتعاقد مع صاحبها.

وغالباً ما تجد في شوارع أدنبرة إعلانات تدعوك إلى حضور قراءات شعرية، فتذهب إلى هناك لتجد أن أحد الأشخاص قد حول الغرفة التي يقيم بها إلى مسرح بعد تقسيمها إلى نصفين الأول للجمهور، والثاني بمثابة خشبة للقارئ أو الممثل الذي يتفنن في المنافسة لمعرفته المسبقة بأن الجمهور أدنبرة بدأ يضيق ذرعاً بالعروض التقليدية، ومن ذا الذي لا يضيق بعطيل وهو يصرخ بديدمون لتسكت، أو بهاملت وهو يكرر عبارته المتثائبة «نكون أو لا نكون»، ويصح أن يقال إن المدينة بكاملها تتحول في النصف الثاني من أغسطس (آب) إلى مسرح دائب الحركة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، فهناك عروض تستمر حتى الرابعة صباحاً، وأخرى تبدأ مع شروق الشمس. وفي محاولة شجاعة لتأمين أماكن عرض لهذا العدد الضخم من الفنانين حولت أدنبرة مقاهيها وأرصفتها وحاناتها القديمة ومسابحها ومحلات «البنكو» والحدائق المنزلية واسطح العمارات إلى مسارح وصالات عرض لم تفِ -على كثرتها- بالمطلوب، ولن تفي بذلك مستقبلاً. ومن أين لمدينةَ صغيرة أن تستوعب أكثر من عشرة آلاف عرض في ثلاثة أسابيع؟

وغالباً ما يستأجر الذي يعجز عن إيجاد مكان شاحنةً صغيرة يطوف بها بين الأحياء ليعلن عن نفسه، ثم يقدم عمله الفني على ظهر الشاحنة، وقد اكتشف الهواة أن هذه الطريقة أقل تكلفة من استئجار مكان ثابت، فكثرت الشاحنات الفنية في المهرجان، وأصبحت مشاهدتها منظراً يومياً مألوفاً في شوارع أدنبرة القديمة المعجونة بعبق التاريخ.

على صعيد الموسيقى ظل رحمانينوف الأكثر حظوة عند العازفين، على مدار نصف قرن ومعه باخ وموتسارت وهايدن.

ولأن كل مدينة تحتفي بأبنائها، كان الحدث الأبرز خلال نصف قرن، الاحتفاء بالكاتب الأسكتلندي روبرت لويس ستيفنس، مؤلف «جزيرة الكنز»، ورواية الدكتور جايكل والسيد هايد. هذا الاحتفاء بابن أدنبرة الذي عاش طفولته وشبابه فيها بمناسبة مرور مائة عام على وفاته عقب حياة حافلة بالكتب التي تحولت معظمها إلى أفلام سينمائية ناجحة.

وبعد أن تشبع من سيرة مؤلف «جايكل وهايد» وتتناول الغذاء في بيته في المدينة المقنعة والمزدوجة الشخصية والضائعة نسبياً بين القديم والحديث قد تفكر ببعض الموسيقى، وهذه أكثر مما تتصور لكن يجب أن تقف قبل أن تسمع أمام الكلب الوفي، ففي طريقك إلى سماع أرغن باخ في «كيرك» أو الاستمتاع برباعيات هايدن ووترياته في قاعة الملكة، لابد أن تعبر بأشهر معلم في أدنبرة وهو تمثال الكلب بوبي، ولهذا الكلب الذي يعتبر على حداثته الزمنية بشهرة القلعة قصة واقعية تسمعها مجزأة بين حفلة موسيقية وأخرى.

لقد مات هذا الكلب، كما تشير إلى ذلك شاهدة قبره في مدافن «كيرك»، في الرابع عشر من يناير (كانون الثاني) 1872، وبعد موته بسبعة أعوام كرمته المدينة بإقامة تمثال ومدفن رخامي أزاح الستار عنها عام 1881 دوق جلوستر، وقد كتب على الرخام الأحمر الذي يعلو مدفن الكلب عبارة تدعو الناس إلى اتخاذه قدوة في السلوك.

وتشير عبارة «دع سيرته في الوفاء والإخلاص بمثابة درس لنا» إلى لب قصة الكلب الوفي الذي كان، كما يقولون، صديقاً للفلاح جون كري في ريف أدنبرة، ولما فقد جون عمله وقرر الهجرة إلى المدينة طلب من صديقه حجز الكلب لمدة يومين حتى لا يتبعه. لكن بوبي لحق بصاحبه المريض إلى أدنبرة وعرف مكانه، وظل بجانبه إلى أن مات، وزاد على ذلك فلازم قبر صاحبه لمدة 14 عاماً، ولما اشتهرت قصته قبل موته دفنته المدينة إلى جانب جون الذي غابت سيرته وبقيت سيرة كلبه الوفي الذي تقف أمامه بتبجيل قوافل السياح الأجانب، وخصوصاً الأميركيين الذين لا يعودون إلى الولايات المتحدة الأميركية إلا بعد التقاط صورهم إلى جانب تمثال الكلب الوفي أمام الكنيسة التي تعزف أرغن باخ دون انقطاع.

إن افتتاح مهرجان أدنبرة فرصة لمشاهدة المدينة في أبهى تجليات روحها خلال مهرجانها، فهناك لا يحضر النشيد الوطني، ولا الرؤساء بمواكبهم الرسمية التي تعيق حركة المرور وحتى وزارة الثقافة بياقاتهم المنشاة، ومستشاروهم الكثر ليس لهم مكان في الصفوف الأمامية، فقد احتل البهلوانات بأنوفهم الحمراء مواقع وزراء الثقافة، وصدحت موسيقى القرب لفرق من الغجر، والسحرة، ولاعبي السيرك، وجاء افتتاح مهرجان «أدنبرة 50» بسيطاً كأجمل ما تكون البساطة، وكيف لا يكون كذلك، ومقاعده الأولى محجوزة لعشاق يفترشون العشب، وأطفال يطلقون الحمائم، وثلة من مجانين الفن تداعب المارة يتبعها كوميديون هواة ينتزعون الضحك من الفؤاد المكلوم.

لاعبو الأكروبات كانوا هناك أيضاً ليسرقوا الأضواء، هم وفرقة كرنفالية أفريقية غطت طبولها على موسيقى القرب من مجموعة من المحاربين القدماء الذين كانوا يهاجمون المارة بالتروس والرماح، ويخلقون جواً مرحاً حين ينهزمون أمام أطفال يهاجمونهم بالبالونات، والآيس كريم، وما يتوفر في حقائب الأمهات من أدوات زينة، وماكياج ومفاتيح صدئة.

ويبدو أن المليون متفرج الذين يصطفون سنوياً ما بين شارع الأمير، وطريق اسطبلات الملك على اتفاق مسبق بأن عروض الافتتاح ليست للمحترفين فقط، إنما للناس الذين ساهم كل منهم في إضفاء جو من البهجة على مهرجان يعدك بالمتعة، ويلتزم بأن يعيد إليك نقودك إن لم تحصل عليها.

لقد زرت أدنبرة لأول مرة في الذكرى الخمسين لمهرجانها الأشهر، ثم تكررت الزيارات، وفي كل مرة تدهشني قدرتها على التجدد من خلال الفن. فهي ليست كالمدن التي تراها ولا تعود إليها. بل من المدن التي تدمنها، وكيف لا وفيها سنوياً تشيخوف وفرجينيا وولف وموليير وإليوت وقد كان آخر ما شاهدته لإليوت فيها مسرحية تعلم روادها فن الخيانة الزوجية.

وقد عرضت هذه المسرحية لأول مرة في مهرجان أدنبرة عام 1949 وحضرها إليوت نفسه مع عشيقتيه الأميركية إميلي هيل والإنجليزية ماري تريفليان، وجلس بين المشاهدين يمتع ناظريه بما صنع ويراقب أثره على أقرب النساء إليه.

ويؤكد مايكل هيستنغ كاتب مقدمة العرض لحفلة كوكتيل أن أياً من العشيقتين لم تكن تدري بوجود الأخرى في المدينة. لكنهما كانتا على علم بأن المسرحية نتاج عذابات إليوت مع زوجته فيفيان.

والمفارقة العجيبة في هذه المسرحية أن إليوت، الذي صرف نصف حياته وهو ينظر لضرورة فصل حياة الكاتب عن أدبه في ما عرف نقدياً بنظرية «المعادل الموضوعي»، يخالف تنظيراته، ويكتب في حفلة كوكتيل عن تجربة شديدة الخصوصية والشخصانية، ويصعب فصلها عن سيرة حياته، إذ إنه من المعروف أن إليوت قد وضع زوجته فيفيان في مصح للأمراض العقلية رغم إرادتها ليتلافى الجحيم الذي خلقته حوله، وبما أنه لم يكتب عن تلك العذابات مباشرة لصعوبة البوح بالأمور الشخصية قد اختار كما يبدو أن يصبها في قالب مسرحي يتلاعب فيه بالنهايات دون أن يمس المقدمات والتفاصيل المفضية إلى الخاتمة التراجيدية التي تلاقيها العشيقة.

في مسرحية إليوت يخون الزوج إدوارد شامبرلين زوجته لافينا مع شابة اسمها ليسيا، وتخون الزوجة زوجها مع صديق العائلة بيتر، وحين يحتدم الصراع داخل الشخصيتين يأتي الطبيب النفسي السير هنري هاركوت رايلي، ويجمع الاثنين في عيادته، ويقترح عليهما نسيان الماضي والبدء من جديد، فكل لحظة في حياة الإنسان هي بداية جديدة.

ولدهشة المشاهدين تثمر هذه النصيحة ويتدرب الزوجان على فن التسامح. ويعيدان اكتشاف الذات من داخلها. فإليوت في هذه المسرحية يعاكس سارتر صاحب القول الأشهر «الجحيم هو الآخرون» ويجعل بطله إدوارد شامبرلين يصرخ «الجحيم هو ذواتنا».

ولا تقف لعبة تمسيد الضمير، وتدريبه على رؤية الإيجابيات فحسب عند حدود الزوجين، فالعشيقة ليسيا تقرر أن تتطوع لمساعدة الفقراء وضحايا الحروب في آسيا وأفريقيا، لتفسح لحبيبها فرصة إعادة بناء بيته المحطم، وقبل أن تجد العشيقة سلواها في مساعدة الآخرين تلقى مصيراً بشعاً وتموت بعد أن تصلب وتعذب عارية في منفاها.

ويساءل النقاد لماذا اختار إليوت ذلك المصير الفاجع للعشيقة؟ ويردون بأن نزعته الكاثوليكية التطهرية ما كان يمكن أن ترضى نظرياً بأقل من ذلك المصير لعلاقة محرمة. أما في الواقع فإن إليوت واصل علاقاته مع عشيقاته في حياة زوجته وبعد موتها. فهناك مثلاً أكثر من ألفي رسالة بينه وبين الأميركية إميلي هيل أوصى ألا يتم فتحها إلا في 2019، وحين تفتح تلك الرسائل ستكشف الكثير من خفايا حياة إليوت السرية التي حرسها جيداً وأبعدها بعناية عن عيون الآخرين.

وعلى عكس الفكرة الكئيبة السائدة عن إليوت في «الأرض الخراب» والقصائد والمسرحيات الأخرى، فإن حفلة كوكتيل فيها الكثير من خفة الدم، وخصوصاً حين تحضر شخصية جوليا التي تحب هي الأخرى بصمت شخصاً آخر غير زوجها، ويؤكد الذين حضروا عرض 1949 أن إليوت استند في رسم تلك الشخصية إلى صورة عشيقته الثانية البروفيسورة ماري تريفليان، وطلب منها أن تتحدث للجمهور بعد العرض الأول قائلاً:

- جاء الوقت الذي يجب أن تتكلم فيه جوليا.

وقد تكلمت جوليا في المسرحية، فأربكت كل من حولها، ولم تكن راضية عن وصفة التسامح التي أعادت –رغم الخيانات– الوئام إلى بيت الرجل الذي كانت تحبه، وبمجرد خروجها عادت البرودة إلى الشخصيات والحوار، فإليوت كعادته يتفلسف كثيراً، وهنا سر قوته وضعفه معاً، ومفتاح تفسير شخصيته القلقة والمعذبة، التي ألبسها بالقوة لإدوارد شامبرلين بطل المسرحية التائه الذي يناضل طويلاً لاكتشاف ذاته ونسيان ماضيه، ويتسامح في كل شيء إلى درجة مشاركة زوجته في الفصل الأخير في الإلحاح على عشيقها السابق لحضور إحدى حفلاتهما المنزلية.

وتعتمد أدنبرة على ابنها البار كثيراً «شون كونري» في تلميع صورتها الدولية، وهو مثل كل الأسكتلنديين معجب بموسيقى القرب والويسكي، وللمشروب الأخير مصنع لا تكتمل زيارة أدنبرة دونه. ففي الشارع الطويل الذي يصعد إلى القلعة لابد أن تتوقف أمام متحف صغير، ويجعلونك تشاهد فيه على الطبيعة مشاهد إنتاج الويسكي الاسكتلندي الفاخر، وإن كان الوقت مساء فلابد أن تكون بعدها على موعد مع عرض في القلعة يقدم لك التاريخ مقطراً وملوناً من خلال فرق عسكرية موسيقية من مختلف أنحاء العالم تعلمت جميعها العزف على آلة القرب في أدنبرة.

لقد عبرت أدنبرة عشرات المرات على الأقدام، وفي كل مرة كنت أجد نفسي أمام مشهد جديد، فهذه مدينة تتجدد يومياً وتجددك معها، وتعلمك عادة النوم بعد استقبال الشمس ولساعات قليلة، وإلا فاتك الكثير من المسرح والموسيقى والأوبرا وبعض عروض الهواة التي تبدأ أحياناً في الثامنة صباحاً.

أدنبرة قلعة وكلب ومهرجان، والبقية تفاصيل تغيب وتظهر لتذكرك بأنك في مدينة تحاول الانسجام مع نفسها وتؤاخي الماضي على الحاضر، وعينها دوماً على مستقبل لا تريده غارقاً في الدم كما كان عليه الحال في أيام ماكبث.

# (9)

# نيويورك... عصابات وشعلة حرية

الحرية في الولايات المتحدة الأميركية، مثل تمثال الحرية في نيويورك، وحيدة ومعزولة ومفرغة من محتواها، وإليك قبل التمثال هذا المثال، فالسيدة هيلاري كلينتون تعيد ألف دولار لمتبرع مسلم لحملتها لعضوية مجلس الشيوخ لأنها لم تكنٍ تعرف أنه مسلم، والشيخة هيلاري نفسها –ما غيرها– تقبل مليونا وأقل وأكثر من أي يهودي دون أن يرمش لها جفن، أو تحس بأي إزعاج أو حرج. فهل هذا –بالله عليكم– تصرف شخصية حرة في بلد حر...؟

والآن من المثال إلى التمثال، فنصب الحرية الشهير لتلك السيدة المترهلة التي تحمل في يمناها مشعلاً لتنير به العالم وبيسراها صفحة تحمل تاريخ الاستقلال تم عزله في جزيرة صغيرة غيروا اسمها القديم، وأطلقوا عليها اسم جزيرة الحرية، وهي مجاورة لجزيرة أليس التي تذكّر أميركا بماضيها العبودي حين كانت الجزيرة مركزاً لجلب الرقيق من أفريقيا.

وفي أسفل تمثال الحرية صور لمقاطع مصغرة ومكبرة من التمثال وأقوال عشوائية عن الحرية تم جمعها دون تدقيق، فغاندي

الذي كان فولتيرياً وكربلائياً في قدرته على تحويل الظلم إلى إنجاز تاريخي للقوة أخذوا منه قوله: «أنا عاشق لحريتي لذا لن أفعل أي شيء لتقييد حريتك». ولو كان الأميركيون يعون بنسبة 5٪ فقط بهذا القول ويطبقونه لما كانت مواقفهم من الشعوب المغلوبة على أمرها بتلك الصفاقة والوقاحة، وخصوصاً مع الشعب الفلسطيني الذي يذبح يومياً أمام أعينهم وعلى شاشاتهم فيأتون -وبدلاً من مواساة الضحية- يطبطبون على أكتاف الجلاد والجاني.

ومن الثائر الذي اغتالوه «مارتن لوثر كينغ» وضعوا عند أقدام تمثال الحرية قوله المسروق من غيره «الحرية تؤخذ ولا تعطى»، والاختصار ليس للوثر كينغ، فقوله الأصلي عبارة طويلة ترجمتها «نحن نعرف من تجاربنا المرة أن الحرية لا تمنح من قبل المستبد، إنما يحصل عليها المقهورون بالقوة والتصميم» وما ضره قدس الله سره لو أشار لى قصيدة شوقي عن دمشق وسكت «وللحرية الحمراء باب...».

ولعل قول شاجال الذي يربط الحب بالحرية، وقول ثرفانتس الذي يعتبرها من أهم السعادات التي أهدتها الجنة للأرض من أجمل تلك المختارات التي وضعوا معها لأسباب تقنية بحتة وجبراً للخواطر عبارة نحات التمثال أوغست بارثولدى الذى يعترف بأن طموحه كان يتمثل في خدمة الأفكار العظيمة، ونقش اسمه تحت أقدام الرجال العظماء، وقد صار له ما أراد.

والتمثال كما هو معروف هدية من الشعب الفرنسي، وهناك نسخة منه في نهر السين بعد برج إيفل، وقد نقشوا عليه نكاية الإنجليز

تاريخ استقلال أميركا عن الإمبراطورية البريطانية في الرابع من يوليو (تموز) عام 1776، ولم تقبل الست أم–ريكا الهدية المجوفة التي تزن 225 طناً إلا في الثامن والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1886 ووصلت قبل أن يتم جمعها مجزأة على شكل أشلاء عددها 350 قطعة، أي أقل بأربعة أرقام من عدد الدرجات التي تحملك إلى منطقة التاج في أعلى التمثال وعددها 354 درجة.

وهناك بعد أن تصل لاهثاً عبر أدوار تضيق إلى أن تقطع النفس تلقي نظرة على نتوءات التاج، وعددها سبعة على عدد محييطات العالم وبحاره الرئيسة، وتسأل نفسك: لماذا فرغ الأميركيون الحرية من معناها، وجعلوها كهذا التمثال المجوف الذي يعجبك شكله من الخارج، وحين تراه من الداخل على حقيقته تصغر معانيه في قلبك، ويقل إعجاب عينيك به شكلاً ومضموناً؟

إن الجائع لا يمكن أن يكون حراً، وفي أميركا –على كل ثروتها وجبروتها– أعلى نسبة من الجياع والمرضى الذين لا يجدون علاجاً، فأميركا الدولة الوحيدة التي تردك مستشفياتها على عقبيك ولو كنت على حافة الموت، وأحياناً يتفرج عليك الأطباء والممرضات وأنت تموت، ولا يسمحون بإدخالك لأنك دون تأمين طبي.

وبالفعل فإن الحرية في أميركا مثل تمثال الحرية فيها، معزولة ومقرورة ومجوفة ليسهل تفريغها من معانيها النبيلة، فحين تعرف ما يجري وتنظر إلى الشعلة في اليمنى وصفحة الكتاب في اليسرى لن تفكر بالنور ولا بالمعرفة، إنما سترى الكتاب على شكل بلاطة حمام والشعلة كمنسف أرَدَني، تتوسطه بطيخة أسبانية.

ودعك من تمثال نيويورك وبنا إلى قلبها، ففيه بعض ما ينسينا الحرية وشعلتها وتماثيلها المجوفة.

في قلب نيويورك متحف عربي يعرف عنه الأجانب أكثر من العرب، فقد استطاع متحف داهش منذ إنشائه أن يستقطب نخبة من نقاد الفن ومحبيه الذين يقدرون فيه التخصص، فالمتاحف التي تعرض الفنون الأكاديمية للقرن التاسع عشر قليلة، ولا أحد يعرف على وجه التحديد هل بصيرة سالم موسى (المعروف بداهش) الثاقبة هي التي دفعته إلى اقتناء تلك النوعية، أم أن ضيق ذات اليد في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، حيث بدأ داهش يراكم مجموعته، جعل من اقتناء هذه النوعية الأقل تكلفة من لوحات الانطباعيين والسرياليين هي الإمكانية الوحيدة المتاحة لعاشق للفن لا تسعفه إمكانياته المادية؟

والاختصاص الثاني والأهم بالنسبة لنا كمشارقة أن معظم لوحات ذلك المتحف اتخذت من الشرق التركي والمصري والشامي ومن شمال أفريقيا العربي موضوعاً لها، فهناك تتجاور لوحة جين ليون جيرومي «بونابرت في مصر» مع لوحة الجمال الطنجاوي لخوسية تابيرو بارو، وإلى جوارهما لوحة الأتراك في حيفا للفنان الإيطالي جوستاف بورنفيند، وهي من أجمل اللوحات الكلاسيكية عن حقبتها.

وفي الزاوية الغربية للمتحف لوحة «المرأة التركية المدخنة» للفنلندي جين باتيست فانمور التي تأخذ المخيلة فوراً إلى الإيروتيكا الشرقية التي جن بها الفنانون الغربيون في القرن الماضي والذي قبله، وكان أقصى وأجمل تعبير عنها ذاك الذي تجده في لوحة جين

أوجست دومينيك أنجريس «الحمام التركي» وهي من مقتنيات متحف اللوفر.

وحكاية الدكتور داهش (مؤسس المتحف) مع الفن والأدب حكاية عجيبة وغريبة، فهو لم يدخل مدرسة نظامية إلا في ميتم غزير في الدولة اللبنانية التي أتاها مهاجراً من القدس في بداية القرن الماضي حين كانت جزءاً من سورية، ومع تلك البدايات التعليمية المتواضعة، فقد ألف أكثر من مائة وخمسين كتاباً أشهرها «مذكرات دينار» وقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» قبل أكثر من شهرين (2000/8/9) على صدر صفحة ملحقها الفني تحقيقاً موسعاً عن متحف داهش، قالت فيه كاتبته دورين كارفاجال إن ميزانية متحف ذلك اليتيم الفقير الذي توفي عام 1984 تتجاوز الثلاثين مليون دولار بعضها من ثروته الشخصية، والباقي من عائلة زاهد السعودية التي تشرف على تراث داهش الأدبي والفني، وترعى استثماراته النيويوركية.

وبمبلغ بهذا الحجم يستعد المتحف للانتقال من موقعه الجيد الحالي في الجادة الخامسة إلى موقع أجود في ساحة كولومبوس بجوار سنترال بارك. وقد سألت صاحب الوجه البشوش محمد المصري في مكتبة داهش الواقعة في مبنى صحيفة الـ«نيوزويك» عن صحة هذه المعلومة، فأكد أن المؤسسة تنتظر قراراً حول المبنى من بلدية نيويورك للفصل بين عرض متحف داهش والعرض الآخر المقدم من مالك إحدى ناطحات السحاب دونالد ترامب.

ولا يوجد ما هو أكثر إثارة للجدل من متحف داهش ومكتبته غير حياته، فقد جرده ذات يوم الرئيس بشارة الخوري من جنسيته

اللبنانية بعد انتشار بعض الأقوال عن خوارقه أو «معجزاته الروحانية» كما يسميها أتباعه الذين يعتقدون أنه أصلح «نجفة» كريستال مكسورة بنظرة واحدة، وفي مرة ثانية أحالٍ ورقة يانصيب خاسرة إلى ورقة رابحة. أما الأكبر والأصعب تصديقاً من حكاياته فهو قيامه من الموت بعد أن أعدمته فرقة عسكرية إيرانية.

وخارج إطار هذه المبالغات الروحية لم يكن الرجل أكثر من صاحب مذهب فكري – روحاني أطلق عليه الشيخ عبدالله العلايلي ذات يوم اسم «الصوفية المقتصدة»، وكان العلايلي يعتقد أن أدب داهش لا ينطبق عليه إلا قول أبي نواس:

**يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً**

وهذا قول ينطبق على أعمال متحفه ولوحاته أكثر من انطباقه على أدبه، فشعره الذي يقارنه بعض تلاميذه ومريديه بدانتي وغوته خواطر نثرية عادية من النوع الذي كان يكتبه أمين الريحاني وجبران خليل جبران وجميع المهجريين في بدايات القرن.

وأظن أن القارئ العربي تعب من تلك المعاني المكررة عن نيويورك المادية عند لوركا وديلان توماس وشعراء كثر حفروا قبر نيويورك قبل أن تسقط أبراجها. وكنت شخصياً متأثراً بهؤلاء حين زرتها قبل عام بالضبط من سقوط البرجين، وهؤلاء لم يلاحظوا أن نيوريورك من المدن التي تعطيك الفرصة للهرب من الماديات إلى الجمال الطبيعي، ولا أقصد من مانهاتن إلى بروكلن، فشهاب الدين النيويوركي مثل أخيه إنما أشير إلى «بافلو» ذراعيها البعيدة حيث

شلالات نياجرا ترسم الحدود بين كندا وأميركا، وهناك تعبر من بلد إلى آخر على جسر طويل، فتجد الشلالات من الجانب الكندي أكثر جمالاً فلا تدري هل أنت متحامل ضد السياسة الأميركية أم مجرد صاحب ذوق في الجمال الطبيعي يرتاح أكثر للجانب الكندي من أشهر شلالات الدنيا.

وفي نيويورك أشياء كثيرة تُحب في النهار كحديقتها التي رأيناها في عشرات الأفلام قبل أن نمشي على عشب «سنترال بارك» ونتذكر والت وايتمان صاحب «ديوان العشب» وشعراء كثر ناصبوا تلك المدينة العداء بالتهمة المادية، وتناسوا أن العالم كله أصبح مادياً، لكن كراهية نيويورك تتبع من سياسة الدولة التي تنتمي إليها ومن اقتناع معظم العرب والمسلمين أنها مركز النفوذ الصهيوني. لكنك تتناسى هذه المعاني -إن استطعت- فتراها مدينة محبة للمرح والحياة. ففي «برودواي» الكثير مما تحب أن تراه وتسهر معه وتظنه لطيفاً إلى أن تخرج إلى الشارع فيتغير كل شيء في لحظات. فنيويورك قاسية على نفسها وعلى الآخرين، وتعلم كل من يعيش فيها تلك القسوة الضرورية للاستمرار في مدينة بنيت على الدم كما أخبرنا سكورسيزي في فيلمه «عصابات نيويورك»، الذي يحكي عن بدايات تشكلها من خليط من الهولنديين والأيرلنديين وجنسيات أخرى قذفت بها المجاعات والحروب إلى تلك الأصقاع فشكلت مجتمع عصابات أوجد قانونه لاحقاً، لكن عقلية العصابة ظلت كامنة في روح المدينة.

ولم تستطع الجامعات والفنون و«المتروبوليتان» أن تخفي تلك الروح ولا ذلك السلوك. لذا كانت نيويورك في يوم من الأيام المدينة

الأقل أمناً في العالم -ولعلها ما تزال- فانخفاض أرقام الجرائم لا يعني في نيويورك أن الأمن مستتب بقدر ما يعني أن الناس لا يخرجون من بيوتهم إلا تحت ضغط الحاجة الملحة.

ويتوزع العرب في نيويورك بين مانهاتن وبروكلن. الأولى للأثرياء، والثانية للفقراء والطلبة، وفيها كما في فلسطين يتجاورون بكثافة مع اليهود، ولا تظهر تناحراتهم العلنية إلا حين يجتمعون تحت سقف واحد في جامعة كولومبيا.

لقد غنى «فرانك سيناترا» لنيويورك أغنية ماتزال على شفاه الجميع -رغم قدمها- وفيها يعلن أنه إن نجح في نيويورك فإنه يستطيع النجاح في أي مكان، وهذه حقيقة لا مراء فيها داخل الأغنية وخارجها. فمن يثبت نفسه وسط تلك الغابة من القسوة لا تهمه بعدها جميع غابات الدنيا ولا عصاباتها.

# (10)

# ليالي الأنس في هافانا

«أصحاب التماثيل منعوا بيع الشباشب» تلك كانت الرسالة القصيرة الضاحكة التي تلقيتها في قلب العاصمة الكوبية هافانا بعد أسبوعين من المشاهد البغدادية التي لا تنسى عن شباشب بالية تنهال على صور ملونة وتماثيل لامعة لمستبد مخلوع، وتلفت حيث أقف في الساحة الرسمية الكبرى فلم أجد غير تمثال واحد للشاعر –الرمز– «خوسيه مارتي» شاعر الاستقلال الكوبي، وأمامه عبر الساحة جدارية كهربائية لأسطورة أميركا اللاتينية تشي غيفارا، فانتبهت ساعتها على حقيقة كانت بمثابة الاكتشاف غير المتوقع، وهي أن هافانا على اتساعها وجمالها ليس فيها أي تمثال لكاسترو ولا أية صورة في الشوارع والساحات.

هل خدعونا كل هذا العمر بالإيحاء بأن جميع الحكام الشموليين يشبهون بعضهم البعض، وأن طريقتهم الوحيدة للاستمرار هي الإرهاب بالصوت والسوط والصورة؟

تماثيل هافانا تقول شيئاً مختلفاً عن تمجيد الماضي والحاضر. فأمام حانة «فلوريديتا»، التي حولها إرنست همنغواي إلى أحد معالم

الثقافة العالمية، يوجد تمثال لأحد المربين المميزين الذين ربوا الأجيال على الإحساس بالكبرياء والكرامة الإنسانية، وأمام كنيسة مبنية من القرن السادس عشر على ناصية ساحة هافانا القديمة هناك تمثال لسكير فرنسي أحبه الهافانيون وتعاطفوا مع قصته الإنسانية، فقد حضر كما تقول الرواية بحثاً عن الثروة وعمل في منزل أحد الجنرالات الإسبان، وبدلاً من الثراء وجد نفسه بالسجن، فقد اتهمه الجنرال بالسرقة ليتخلص منه فدخل السجن رغم براءته وظل فيه إلى أن أخرجه الثوار الذين اقتحموا الجزيرة من جهة المكسيك.

وقد عبرت المدينة الرحبة ذات القلب الكبير عن تعاطفها مع «الكلوشار» الفرنسي بإقامة ذلك التمثال الجميل الذي يتصور معه الزوار ثم يغزون السير باتجاه «بيت العرب» الذي يبعد عنه خطوات معدودات.

وليس ذاك البيت شارة العروبة الوحيدة، فمعظم بيوت هافانا على الطراز الأندلسي –وما كان لها إلا أن تكون كذلك– فقد توقف كريستوفر كولمبوس في «لؤلؤة الأنتيل» لأول مرة عام 1492 وهي السنة التي صادفت خروج العرب من الأندلس، ثم تبعه الجنرالات الإسبان وليس معهم من طراز مفردات الثقافة وطرز العمران غير ما تركه لهم «المورو» المطرودون الذين اختفوا كبشر، لكن بصماتهم ظلت تحت حكم إسبانيا ومستعمراتها إلى وقت طويل، وظلت لغتهم تشكل النسيج الحي لمعظم مفردات الإسبانية المتعلقة بالعلم والطبيخ والعمارة.

أول قلعة أنشئت في هافانا في القرن السابع عشر ماتزال تحمل اسم «مورو»، وهي ذات القلعة التي صوروا فيها أجمل مشاهد فيلم

جيمس بوند «مت في يوم آخر» حيث خرجت عروس البحر السمراء الشاسعة الفتنة، هالي بيري، من الكاريبي، ثم توجهت نحو قلعة مورو وخلفها كالمسحور جيمس بوند الذي كان يحتسي المشروب الوطني الكوبي «موهيتو» والبقية معروفة. فكل مكان يحل فيه عميلان بريطاني وأميركي ينتهي مدمراً، ولك أن تضيف الإسبان إلى هذه الخلطة. فالدمار الذي سببوه لكوبا ولأميركا اللاتينية أكبر من الوصف، وذلك قبل أن يتسلم الأميركيون منهم راية مواصلة تدمير قارة الموز والسكر والغابات الاستوائية.

لقد تأخر استقلال كوبا قرابة نصف قرن نتيجة ذلك الحلف غير المقدس بين مصالح الاستعمارين القديم والجديد. فقد قامت حرب الاستقلال الأولى عام 1868 واستمرت عشر سنوات وجاء من يسرق نتائجها، إلى أن قامت حرب الاستقلال الثانية التي مهد لها خوسيه مارتي وكان أول ضحاياها.

إن أسطورة مارتي في القرن التاسع عشر لا تضاهيها نضارة غير أسطورة غيفارا في القرن العشرين، فقد كان ذلك الشاعر الذي يصادفك اسمه فور نزولك من الطائرة على المبنى المتواضع لمطار هافانا الأب الروحي لكل حركات الثورة والتغيير في أميركا اللاتينية، وزاد من أسطرة حياته استشهاده في ساحة المعركة. فالشعراء نادراً ما يموتون في ساحات القتال، لذا حصل له ذات ما حصل للورد بايرون الذي حوله موته في الحرب اليونانية –التركية إلى رمز عالمي للأحرار والحرية.

خوسيه مارتي الذي عاش منفياً ومسجوناً معظم سنين حياته القصيرة ليموت مع أول طلقات حرب الاستقلال الثانية له صورة نادرة

في متحف الثورة قد تفسر لنا كعرب معضلة تحيرنا، فكل من قرأوا ماركيز ويوسا وبورخيس وغيرهم من أساطين الأدب في تلك البلاد يلاحظون عطفاً خفياً على العسكر والجنرالات، بينما الأدبيات العربية التي تقف ضدهم على طول الخط وتكاد تجردهم من إنسانيتهم، على عكس ماركيز الذي نرى كولونيلاته وجنرالاته بلبوس بسيط وملامح فيها الكثير من الضعف الإنساني إلى درجة تجعلك تتعاطف معهم. وحين تقف في متحف الثورة الذي ما يزال مدخله يزدان بالرصاصات التي أسقطت «باتيستا» أمام الصورة التي تجمع بين خوسيه مارتي المدني والعسكريين أنتونيو ماثايو وماكسيمو غوميز تدرك أن شعراء الثورة وجنرالاتها حاربوا معاً ووقفوا مع المصلحة الوطنية، ففي تلك الصورة التي تحمل تاريخ الخامس من مايو (أيار) قرر العسكريان تسليم القيادة للشاعر المدني الذي لم يكن يحارب بالقصائد وحدها، فإلى جانب الصورة التاريخية سيفه ورسالة منه قبل يوم من استشهاده في الثامن عشر من مايو (أيار) 1895 وجهها إلى مانويل ميركادو يعلن فيها عدم قبول المساومة على الاستقلال الوطني، على حساب البحر، لكنهم اختاروها لكتاب هافانا التي يلطمها بخصب شبق موج الأطلسي ليغري بكل أنواع الفانتازيا الممتعة يقول مارتي:

**رجل متواضع أنا من أرض النخيل**
**قبل موتي سأغني آهات قلبي**
**مع فقراء هذه البلاد**
**لأشاركهم ذات القدر**
**ينابيع الجبال تسعد روحي**
**أكثر مما تفعل أمواج البحار**

ومن عجائب هافانا أن عاشق البحر وعاشق الينابيع يتجاوران، فما أن ينتهي الزائر من إرث مارتي حتى يتوجه إلى بيت إرنست همنغواي صاحب «الشيخ والبحر» خارج العاصمة هافانا. فهذه مدينة تغفو على شاطئ الأطلسي ولا تبعد كثيراً عن أمواج الكاريبي، ولكل عاشق من سحرها نصيب، ولعل قدر همنغواي كان يدفعه دفعاً باتجاهها. فأين تجد مدينة بهذه الرحابة وهذه الفتنة؟ حتى لكأن الأطلسي فيها أعنف مما هو في غيرها من ألوف الشواطئ التي يغازلها ويهاجمها.

البحر قدر همنغواي وقدر كل المتأملين لصيرورة الأقدار في تلاطمها وسعودها ونحوسها، وقد نؤخر زيارة بيته الكوبي قليلاً، وهو المتحف الوحيد في العالم الذي تراه من الشبابيك دون أن يسمحوا لك بدخوله، ولكن لا تقلق، فالنوافذ كثيرة وفسيحة ولا تخفي شيئاً، فكأن بيت همنغواي كله شباك كبير على هضبة ترى منها بحر هافانا البعيد وترقب شروق الشمس، وفجأة تتذكر تلك الرواية التي جعلت اسم همنغواي يحلق عالياً «الشمس تشرق أيضاً» وهي التي استهلها ذاك الشغوف بالقدر والمصائر بعبارة لسليمان الحكيم من سفر الجامعة:

**جيل يمضي وآخر يقبل**
**الأرض تبقى إلى الأبد**
**والشمس تشرق أيضاً**
**والشمس تنحدر إلى المغيب**
**ثم تسرع إلى حيث أشرقت**
**الريح تذهب صوب الجنوب**
**وتعود مرة أخرى إلى الشمال**

**جميع الأنهار تصب في البحر**
**بيد أن البحر لا يمتلئ**
**ومن حيث تجيء الأنهار**
**تعود مرة ثانية**

إن الجزيرة الكوبية -لؤلؤة الأنتيل- حالة نموذجية لدراسة العذاب البشري تحت مظلة مختلف الثقافات، ودوما تبدأ المأساة من العبودية والملكية، فكوبا في الزمن الإسباني الصعب كانت أرض العبيد والسكر، والثاني لا يزدهر ويحلو إلا بمرارة أولئك الذين تعذبوا وعبروا وصاروا صوراً في المتاحف الأميركية، أو لوحات زيتية على جدران أوروبا، وأشهر هؤلاء تجدهم في أعمل «دوبراي» في فرانكفورت الذي حرص بعد مائة عام من كولومبوس أن يرينا عبيداً أصحاء يقتلون تمساحاً على شواطئ هافانا عام 1592 دون أن يدركوا أن الخطر من تماسيح البر أكبر وألعن، ففي متحف الثورة قاعة خاصة بتاريخ العبودية لعلها ذات القاعة التي كان ينام فيها باتيستا وتضم اليوم قيود العبيد وصوراً عن أساليب تعذيبهم وإحراق بعضهم، وكله كي يشرب المستعمرون شاي العصر المحلّى بالسكر الكوبي الذي ساهم في ازدهار تجارة العبيد، فقد كان في كوبا عام 1601 أربعة آلاف رقيق أفريقي صاروا بعد قرنين نصف مليون إنسان معذب، لذا لا غرابة أن تقترن ثورات الاستقلال بحركات إلغاء العبودية قبل غيفارا ومارتي، ففي كوبا ألغيت العبودية رسميا منذ عام 1886، أما فعليا فظلت سارية المفعول، وظل رقيق السكر وقوداً دائماً لكل الثورات اللاحقة.

إن أجمل أغاني الجاز والبلوز خرجت من مزارع الفستق والسكر في الأميركيتين وهناك من يفضل غناء عبيد الكاريبي على غناء

الميسيسبي، أما الأغلبية فتجزم أن رقص لؤلؤة الأنتيل من النوع الذي لا يضاهى.

لقد تغير كل شيء في كوبا بعد ثورة كاسترو، باستثناء الكباريه العالمي الأشهر «تروبيكانا» الذي يشهد على جزيرة قراصنة تعتق متمهلة أحزانها وأفراحها على شواطئ الفرح والدم، كما يشهد على كثافة ليالي الأنس وجمالها في هافانا الديكتاتورية والعسكرية، فالرامبا التي خلطت الفن الأفريقي بالفن الكاريبي وخرجت بمعادلة عالمية فنية ناجحة هي المتجذرة هناك رغم أنف الجنرالات وأرباب الصناعات السكرية. فالثابت الوحيد في ليالي الأنس الكوبية الكباريه الذي يواصل عروضه الممتعة دون انقطاع منذ عام 1930، ولابد أن تكون من المحظوظين لتعثر على تذكرة لذلك الكرنفال من الألوان والرقصات الفولكلورية التي يصاحبها غناء شجي لا تعرف أميركا اللاتينية له مثيلاً، مع أنها قارة الشجى والشجن والعذابات المعتقة والمستمرة بفضل جار السوء الذي وجد على الدوام جنرالات يتعاونون معه، وليس باتيستا إلا آخر العنقود من ذلك الحبل الطويل من العسكر الذين لا يشبهون عسكر ماركيز الوطنيين البسطاء الطيبين - باستثناء البطريرك.

ومما يحسب لآخر قلعة من قلاع الكبرياء الإنساني أنها لم تلغِ تواريخ هؤلاء كما فعل الروس، فالجنرالات الغزاة إرثهم محفوظ في قلعة مورو، والبقية في بيت الحاكم العسكري الإسباني الذي يطاول نخله السقوف، وما يزال فيه إلى اليوم طابق خاص للطواويس التي تسرح على راحتها على درج القصر البديع وتغازل الزوار وتتفرش

ذيولها لتغويهم، وسبحان خالق الطواويس الذي أعطاها أجمل الأشكال الملونة وحرمها من الصوت الجميل، فصوت الطاووس الذي تسمعه بكثافة في بيت الجنرالات يؤكد لك أنه ما من كائن ينافس الحمار في قبح الصوت غير الطاووس.

لكن هل هناك شبه بين الجنرالات والطواويس؟

في قبح الصوت والرسالة نعم، وكذلك في الخيلاء، فملابس الجنرالات ومشيتهم كما تراهم في التماثيل التي نجت من الشباشب، فيها الكثير من خيلاء الطواويس الذين لا ينقلب عليهم أحد، فهم في عصر كاسترو كحالهم في عصر كريستوفر كولومبوس، مايزالون يفرشون ريشهم الجميل، ويباهون بذيولهم التي تتحول في الأيام المشمسة إلى كرنفال ألوان الكاريبي.

إن بيت الجنرالات الذي بني عام 1776 صاراً مقراً لقوى الاستقلال الوطني، ثم متحفاً أجمل من القصر الجمهوري الذي صمموه على غرار قصور اللواوسة الفرنسيين قبل أن تصادره الثورة لتراثها. فقد رفض كاسترو أن يسكن فيه بعد انتصار الثورة، وبقي يحكم من فندق هيلتون الذي حول اسمه الأميركي إلى «هافانا الحرة» ثم انتقل إلى العيش في مكان لا يعرفه أحد. وقبل الكوبيون ذلك على مبدأ أن الحياة الخاصة للقائد لا تعني شعبه، لذا هم لا يعرفون أيضاً كم امرأة عنده ولا كم ولداً، وقد سألت الدليلة الكوبية السمراء: ولكن ماذا عن غيفارا؟ فقالت: ماذا تعني بالضبط؟

قلت: أين وزارة الصناعة التي كان وزيرها؟ فأكدت أنها ألغيت. ثم سألت عن البنك المركزي الذي كان مديراً له، فقالت: ليس له

مقر. فالمكتب الوحيد الذي مارس منه غيفارا عمله الرسمي هو الآن داخل مبنى وزارة الداخلية الذي تحتله صورته المواجهة لتمثال خوسيه مارتي الذي لن يزيحه أحد عن موضعه، ولن يضربه الناس بالشباشب، فهناك فرق كبير وخطير بين التمثال الذي يقيمه المتحكم لنفسه وذاك الذي يقيمه بعد رحيله محبوه.

وما يزال عندنا عن هافانا الكثير من الأنس مع همنغواي وغيفارا وغيرهما من الذين أحبوا تلك المدينة الساحرة المفتوحة للشمس والعصافير والسيجار والأمواج القدرية والبحرية التي قد تفيق بعد كاسترو، على مشهد إسدال الستار على حقبة من أخصب حقب التاريخ الإنساني في جزيرة قراصنة أوشكت أن تكون شبه منسية لولا رجال ونساء حولوها وتحولوا معها إلى أساطير نضرة تستحق أن تروى في زمن يوغل في الظلم والبلادة.

في هافانا لا تعرف على وجه التحديد ما هي اللعنة التي تلاحق كولومبوس فتمنع عظامه من الراحة، أهي لعنة عبيد السكر أم لعنة العرب أم لعنة عبيد الذهب؟

هذا الرجل – الأسطورة مات مرة لكنه دفن ست مرات، وله خمسة قبور في قارتين، وما يزال إلى اليوم يشكل عبئاً روحياً للمغامرين من أميركا اللاتينية، ومنهم غيفارا أحدث الأساطير وآخرها، لكن شتان بين من يسعى لمجد فردي وذهب ومن تتلبسه شهوة الانتصار الجماعي لبسطاء القارات الست بعمالها وفلاحيها الذين ما يزال بعضهم يدور بدل الثيران بالنواعير والطواحين والسواقي.

ويا دارة دوري فيا عا- سانتا كاترينا – تتنسى مآسينا.

في سانتا كاترينا بدأت انتصارات غيفارا، وإليها انتهت عظامه تحت تمثال يعانق الموج ويوحي بالتفاؤل في زمن صارت فيه الثقة بالمستقبل عملة شحيحة، لذا ليست صدفة على الإطلاق أن يختار رفاق غيفارا عبارته المختصرة «المستقبل لنا ونحن نعرف ذلك» ليزرعوها على الطرقات بكثافة زهرتهم الوطنية البيضاء التي تشبه الزنبق (ماريبوزا).

عظام كريستوفر كولومبوس لا أحد يدري على وجه التحديد أين هي في هذا العالم الفسيح. فقد واجه ذلك الفاتح المكتشف ذات المصير الذي أطبق على فاتحي الأندلس موسى بن نصير وطارق بن زياد حين استدعاهما الخليفة الأموي إثر خلاف على طاولة ذهبية وجردهما من أملاكهما وصلاحياتهما فاختفت أخبار أحدهما ومات كمداً، وشوهد الثاني يتسول مكسوراً محطماً في أزقة دمشق وحواريها.

كولومبوس وبعد أن لاحقته لعنة العبيد والعرب والذهب أحضروه مقيداً من الكاريبي، وحبسوه في «فالودوليد» وحين مات في قيوده دفنوه في كنيسة سانتا ماريا لا انتيجوا.

ومن هناك بدأت قصة ضياع العظام، فقد نقلوه بعد أن مات خصومه إلى أشبيليا تكريماً له، ثم اكتشفوا لاحقاً من إحدى رسائله المكتوبة في السجن أنه أوصى أن يدفن في «سانتو دومينغو» فنقلوا رفاته إلى هناك عام 1536 أي بعد ثلاثين عاماً من موته، ولما قامت ثورة العبيد في تلك البلاد المعروفة حالياً باسم «هاييتي» خاف الجنرالات الإسبان على بطلهم القومي فنقلوا رفاته إلى كوبا ودفنوه للمرة الرابعة داخل كاتدرائية هافانا، ولم تنتهِ فصول رحلة عظام الرحالة المغامر.

فقد كانت هناك نقلة خامسة إلى جمهورية الدومينيكان أثناء حرب الاستقلال الكوبية، وسادسة إلى أشبيليا، وهي التي لا يعترف بها أحد نظراً لوجود عظامه ورسالة منه في صندوق تحت كنيسة العاصمة الدومينيكانية، وبذا لم تنتهِ قصته ولن تنتهي، إلا إذا أقنع مريدوه ومحبوه الناس بأنه ولد بعمودين فقريين، أحدهما في أوروبا حيث انطلق في رحلته في عام انكسار العرب بالأندلس، والثاني في أميركا اللاتينية التي شهدت فتوحاته وانتصاراته.

عظام غيفارا لم تعد كاملة إلى سانتا كاترينا في كوبا. فقد اختفت الذراعان اللتان بُترتا بعد إعدامه في بوليفيا للحصول على بصماته، ومن حسن حظ أسطورة غيفارا أن الكاميرا كانت ترافقه في اليوم الأخير من حياته لتسجيل آخر لقطتين، إحداهما مع عميل السي آي إيه «فيليكس رودويجوز» الذي أسره، ثم نقل إليه خبر إعدامه في مدرسة قرية «هيجورا»، والثاني للجثمان قبل بتر الذراعين باللحية الناصعة السواد والعينين المفتوحتين، ويقال من قبيل الروايات الموثقة وليس الأسطرة، إن إحدى الراهبات نظرت إلى الجثمان في المستشفى وقالت: إنه يشبه السيد المسيح كأنه شقيقه.

وهذه الصورة الأخيرة ليست من محفوظات متحف الثورة في هافانا، فذاك تم تصميمه لتدعيم الأمل والتفاؤل، لذا ترى غيفارا بالإضافة إلى بنطاله ونظاراته وبقايا حمالة سيجاره وقلمه إلى جانب بقايا القارب «غرانما» الذي عبروا به من المكسيك إلى كوبا قبل الثورة، ومع بندقية الـ 26 التي اخترعها وطورها، ومع وحدة الاتصالات التي كان يستخدمها في غابات «سييرا مايسترا» ثم تراه من دون

ترتيب تواريخ في لقطة من صور طفولته وأخرى على الدراجة أثناء رحلة الخمسة آلاف ميل لاكتشاف القارة التي أحبها ووهب دمه في سبيل حريتها.

ومع أنهم في هافانا يختتمون متحف الثورة بتمثالين كبيرين بالحجم الطبيعي له مع رفيق سلاحه «كاميليو سينفيوغر» الثائر المرح الذي كان على الأغلب يقف خلف تفاؤل غيفارا وصموده، فإنك تحس أن الذي صمم المتحف لا يريد أن يبرز شخصا على حساب مجموعة فيها كاسترو بأوائل صوره قبل أن يلتحي وبـ«روبه» الأسود المضحك الذي خطب وهو يرتديه أمام ممرضات مستشفى «سانتينا لورا» خطبته الشهيرة «التاريخ سوف يبرّئني» التي صارت في الخمسينات من أهم أدبيات الثوار في العالم الثالث.

لقد كان جون لي اندرسون مؤلف كتاب «تشي غيفارا... حياة ثائر» أكثر حنكة ومعرفة بما يشد الناس أكثر من الذين نظموا مقتطفات من حياة غيفارا في هافانا، فعند أندرسون تجد الجانب الإنساني الحميم من الأسطورة، وتلتقي بالإضافة إلى ذلك أولاده وزوجتيه وعشيقاته.

مع «ماريا ديل كارمن» أول حب في حياته، ففي الكتاب صورة للفتاة التي رفضته تحت ضغوط أهلها، حين كان مراهقاً في قرطبة الأرجنتينية، ولا أحد يدري هل انتهت بالدير ككل العاشقات المحبطات أم عاشت حياتها بالطول والعرض مثله. ففي أميركا اللاتينية التي صارت كاثوليكية بالضرورة بتأثير كولومبوس وبحارته لا تدري هل الأديرة للصلاة، أم أنها مجرد مقابر للغرام الحي، حيث تدفن كل متورطة عارها أو خيبتها؟

إن التمثالين الضاحكين الواثقين لإرنستو وكاميليتو وهما خارجان من الغابة يختلفان بمقاييس التفاؤل والتشاؤم عن صورة إرنستو وهو على ظهر حمار في القرية البوليفية قبل أيام من ملاقاته لحتفه. وعن اللحظات الأخيرة تكثر الأساطير. فالذين لا يرون الضعف الإنساني حتى ساعة مواجهة الموت يقولون إن غيفارا قال لجلاديه: أطلقوا النار أيها الجبناء إنكم تقتلون رجلاً.

وأتت هذه الصرخة الواثقة المتسربلة بيأسها بعد عدة محاولات وهمية لإرهابه قبل إعدامه في التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) عام نكستنا الشهيرة 1967، وما أكثر نكساتنا ونكباتنا وأشهرها.

إن مصير كاميليو رفيق انتصارات غيفارا وانكساراته يحزن القلب، فهو مصير الرجل الثاني على الدوام ينساه الناس ويؤسطرون الأول، وإن لم تصدق فاسأل نفسك وغيرك الآن من أول إنسان هبط على ظهر القمر؟ وسوف يجيبك كثيرون فوراً إنه أرمسترونج لأن قلة قليلة تعرف أن «إدوين ألدرين» هبط بعده بثانيتين. لكن لا أحد يريد أن ينسب الفضل للرجل الثاني الذي يذهب رويداً إلى مقابر النسيان، حتى وإن كانت ضحكته بعرض الكون كالثائر الكوبي كاميليو.

ومن كاميليو إلى كاسترو الذي ترى معه العشرات في معتقل سانتياغو وتكتشف أنهم جميعاً اختفوا، وظل صاحب اللحية والسيجار –وآه من السيجار– مع صور قليلة مع أشهر رجال العصر الذين صارت هافانا بالنسبة لهم كنيسة عصرية للثورة.

وليس بين هؤلاء بالتأكيد إرنست همنغواي الذي صادر تراث سانتياغو لنفسه بعد الرواية – التحفة «الشيخ والبحر» وظل يتقاسم

تراث هافانا مع الآخرين. فليس أشهر من إرنستو الأرجنتيني هناك غير إرنست الأميركي، وكل على طريقته وأسلوبه والمسافة التي اختار أن يضعها بينه وبين كاسترو.

إن ما يجمع همنغواي مع فيدل لا يتعدى عدة لقطات أخذت في مسابقات صيد السمك، وأشهرها تلك التي يسلم فيها الكاتب الأميركى الرئيس الكوبى كأس الفوز فى اصطياد أكبر سمكة من الأطلسي، ومنها نسخة في حانة همنغواي في قلب هافانا -فلوريديتا- التي تطلق على نفسها تحبباً لقب مهد «الدكويري» وهو مشروب من الرم والليمون والسكر يشربه فقراء كوبا كان لهمنغواي فضل ترويجه عالمياً ولن تلتذ بطعمه إلا أذا كنت بصحبة امرأة جميلة كصديقات همنغواي من كبيرات ممثلات هوليوود اللواتي كن يزرنه في تلك الحانة البسيطة تاركات الفنادق الفخمة على الأطلسي لزعماء المافيا الذين أحبوا بالوراثة كوبا جزيرة أجدادهم القراصنة.

وفي تلك الحانة أمام صورة الكاتب والزعيم السياسي لا تدري بالضبط ما هو موقف همنغواي الحقيقي من ثورة كاسترو وغيفارا. فقد ظل يعيش بينهما لكنه لم يكتب حرفاً واحداً عما حدث في الجزيرة التي أحبها وسكنها مع القراصنة والمافيا والحسناوات لأكثر من ثلاثين عاماً، وكتب فيها وعنها التحفة التي أوصلته إلى جائزة نوبل.

في رواية «الشيخ والبحر» التي لم ينهزم بطلها لكنه أوغل في المحييط أبعد مما يجب، يخرج الانتصار من رماد الهزيمة ويصل الهيكل العظمي وحده إلى شاطئ سانتياغو من دون لحم السمكة الهائلة التي عذبت البحار الكهل لكنه لم يستسلم رغم الإرهاق والجوع وعدم

النوم، وحين ترى قارب همنغواي في حديقة بيته على ربوة بالقرب من هافانا تدرك أنه، مثل كولومبوس وغيفارا وكل المغامرين الكبار، وزع نفسه في عدة قارات، وصار في أكثر من مكان في وقت واحد. لكن بيته الكوبي ظل الأساس لمن يريد فهمه في تفاصيل حياته الداخلية التي يكتنفها ذلك البيت في مجموعة رؤوس أقلام شكلت مرتكزات حياة ذلك المغامر الذى صرف عمره، بعد أن شاهد الموت عياناً فى حربين عالميتين، في صيد السمك والغزلان ومشاهدة مصارعة الثيران، ويبدو أنه ضاق ذرعاً بالحوار والنقاش قبل أن ينتحر، فعلى مكتبه الذي يواجه لوحة حقيقية لبيكاسو ختم عليه كلمة واحدة -حسم- وكانت تعني لمن يعملون معه أنه لا نقاش حول أية ورقة تحمل ذلك الختم العتيد.

ومن الوهلة الأولى في الصالون الاستقبال عند هيمنغواي تظن نفسك فى متحف للفن الطبيعى. فالجدران مغطاة برؤوس الغزلان والثيران ولوحات المصارعة الثيرانية التي عشقها وعاد إليها في أكثر من رواية، أشهرها «الشمس تشرق أيضاً» وعلى أطراف الأريكة البنية المموهة بالبيج مكتبات صغيرة سوداء مكتظة بالإهداءات، وفي الوسط طاولة وزجاجتا «ويسكي وكامباري» تنتظران صاحبهما الذي أنهى حياته بعيداً عن ذلك البيت برصاصة بعد نوبات اكتئاب فظيعة لازمته أواخر حياته التي أنهاها بالانتحار على تراب بلاده، وبذلك ظل بعيداً عن كلابه الأربعة –نيرون وليندا وبلاك ونيجريتا- الذين دفنهم وأقام لهم قبوراً بين المسبح والقارب في بيته قرب العاصمة الكوبية.

ويبدو أن المراسل الحربي السابق الذي غطى حربين كبيرتين وعدة حروب أهلية صغيرة ما كان يستطيع مفارقة الراديو. فالجهاز

الأسود الضخم يحتل مكاناً مركزياً في غرفة الجلوس، أما غرفة النوم فخيبة حقيقية تجعلك تسأل: هل فعلاً كان ينام هنا الرجل الذي كتب عن الحياة والنساء بكل ذلك الشبق المصفى؟

وأمام السريرين الصغيرين الورديين والمرآة المدورة التي تقابلهما لابد أن تتذكر «بيلار» بطلة «لمن تقرع الأجراس» التي جاءتها الشابة مندهشة حائرة بعد ليلة نشوة عارمة فقالت لها: لا تحزني بل افرحي، فالأرض لا تدور بالمرأة إلا مرات قليلة. وأظنها كانت متشائمة فقالت مرة واحدة.

في هكذا غرفة شبه كئيبة لا يمكن أن تدور الأرض أبداً، والعيب ليس في ماري ويلش، زوجته الرابعة التي قاسمته ذلك البيت، بل ربما كان فيه، وهناك من يعتقد أنه ربما يكون قد انتحر بسبب اللعنة المبكرة.

إن المكان الحقيقي الذي كان يجد همنغواي نفسه فيه في ذلك البيت، كما أظن، الغرفة العليا في الملحق التي وضع فيها «تيلسكوباً» لمراقبة النجوم مع مكتب يتربع بثقله على جلد نمر ومقعد طويل (شيزولونغ) للاستراحة، وفي تلك الغرفة التي تطل على هافانا من بعيد نسخة أخرى من صورته مع كاسترو وهو يسلمه جائزة أحسن صياد.

هل نحن صيادون أم فرائس مسيو همنغواي؟

يا من وزعت حبك بالتساوي بين باريس وهافانا وبامبلونا وبرشلونة، فأثبت أنك تفهم بالمدن ذات الأرواح الحية الصاخبة، أما في النساء ففي المسألة قولان وأكثر، فكل ما كتبته وتركته لا يدل على

أنك عرفت كيف تقترب من المرأة وهي تلوح لك بالراية الحمراء، أيها الثور المثخن بجراحه الداخلية.

إن أسطورة كوبا قبل همنغواي وغيفارا وهو سيجارها الذي اكتشف كولومبوس تبغه وأغدقه بكرم حاتمي على بحارته السعداء قبل محنته، وهافانا هي المدينة الوحيدة التي لا يخجل الثوار فيها من تدخين السيجار الكوبي. فهو بالإضافة إلى ثمنه المتواضع واقع يومي، وليس رفاهية وترفاً يتهم بهما ثوار مناطق أخرى. وقبل أن أودع هافانا بساعات ذهبت إلى مصنع «روميو وجولييت» أشهر مصانع السيجار الكوبي، وفيما أنا أصعد درجه وروحي تتراقص على راحتي وحولي وجانبي لم أردد مع روميو:

**إن الشرق وجولييت الشمس**

**آه كيف تريح يدها على خدها**

**وددت لـو ألمـس ذلك الخد**

فليس في المصنع خدود موردة، والسيجار لا يلفونه على أفخاد العذارى السمراوات، كما كان يخبرنا المولعون بالكذب والسيقان البكر، وكله كلام فارغ صادر عن مخيلات مكبوتة، أما الصحيح والموثق فطريقة كلينتون في استخدام السيجار الكوبي.

إنها قصة أخرى ليس مكانها هنا ولا اليوم. فالجمال الكاريبي وما يثيره السيجار وأمواج الأطلسي من غبطة سماوية وشجون مكانها القلب، وربما كان لنا ذات يوم مع الحب اللاتيني وقفة أخرى، فكل هؤلاء المغامرين الكبار خلفهم قصص حب لا تنفذ. فالقدرة على

الحب طاقة نبددها بالكتابة والقتال والشجار حول المستقبل، ويظل بعد كل شيء في داخلنا ذلك الجوع والشبق والتوق الذي لا نعرف له اسماً لارتياد آفاق قصية لعل فيها بعض المفاتيح التي نحتاجها لمعرفة أنفسنا الأمارة بحب الجمال والسيجار والمغامرة.

# (11)

# تجليات من قمة هرم مكسيكي

إذا كانت العذرية تعني براءة الروح، فهناك قارات ما تزال عذراء تحتفظ غاباتها بكل بكارتها الأصلية رغم فحش الزمن الذي يعمر ويدمر ويفسح في لحظات هدوئه المريب المجال لترقيعات جمالية من صنع الجراح الإنسان الذي يجرح هو الآخر ويدواي ويزرع ويلوث، ويظل مسكوناً بهاجس الأبد والخلود، فيكدح ويقدح زناد أفكاره وسواعده ويفسح لمخيلته المجال على مداها ليضيف للطبيعة ما ليس فيها، ويقول لمن بعده بلغة الأحجار والأشجار: لقد عبرت من هنا وتركت بصمتي ورحلت وظلت الطبيعة بعدي عذراء. فهل هي كذلك فعلاً؟

طرحت على نفسي هذا السؤال من فوق أهرامات «تشيتزانيتزا» بالمكسيك، وفيما كنت أسرح البصر إلى آخر مجالات الرؤية في تلك السهوب البكر التي شهدت حضارات «التوليم» و«المايا» و«الأزتيك»، تذكرت أنهم لا يسمون أميركيا اللاتينية القارة العذراء فحسب، بل قارة الأخطاء أيضاً، فالذي اكتشفها لم يعرفها ولم تحمل اسمه،

وحدث من شدة الجهل بها وبحضاراتها عند الأوروبيين أن خلطوها بتاريخ الهند وجغرافيتها، وكان من الطبيعي على هذه البداية الخاطئة أن يحمل أهلها الأصليون –وما كانوا هنوداً– اسم الهنود الحمر والهنود الغربيين.

لقد حملت تلك القارة اسم البحار الإيطالي «أمريكو فيسبوتشي» الذي قام بأربع رحلات إلى تلك البلاد تحت راية التاج الأسباني، أولها عام 1499. أما من أطلق الاسم على تلك القارة الشاسعة –كما يقول– فهو كريستوفر كولمبوس الذي ينسب إليه الكشف الفعلي لأميركا اللاتينية التي لم ينسبها لنفسه، إنما ومن شدة حبه لزوجته –كما تقول الشائعات– كرم بالاسم والدها البحار أمريكو، والاثنان من أتباع الملكة إيزابيلا كاثوليكا التي رهنت مجوهراتها التي استولت عليها من قصر الحمراء بغرناطة لتدفع تكاليف تلك الرحلات.

وعلى ذكر غرناطة لابد أن تسأل نفسك في المكسيك وفي كل بلد أميركي لاتيني خضع للإسبان: هل كان من الضروري أن يذهب خورخي لويس بورخيس إلى مملكة أبي عبدالله الصغير ويلمس أعمدة قصره ليكتب قصيدة الحمراء بين الليمون والياسمين:

**عذب خرير الماء**
**الذى كدرته رمال داكنة**
**عذب ملمس رخام العمود المدور**
**في اليد المجوفة**
**رائقة متاهات الماء الدقيقة**
**تجري بين أشجار الليمون**

**رائقة موسيقى الزجل**

**سائغ هو الحب**

**حلوة الصلاة لرب واحد لا شريك**

**عذب هو الياسمين**

أميركا اللاتينية كلها أندلس أخرى، والمكسيك بالذات أوضح القرائن. فهناك، وغير العمارة الأندلسية التي تجدها في كل عاصمة لاتينية، ازدهرت الموسيقى الأندلسية، حيث الحزن بلا نهاية، والإحساس بالظلم التاريخي داخل كل قلب وعلى كل لسان، ولم تكن صدفة أبداً أن تزدهر ألحان التانجو الراقصة في الأرجنتين وتأخذ المكسيك الحزينة على عاتقها تطوير لحن «البارافي»، وهو لحن لا تواريه بالحزن غير المراثي الكربلائية.

لقد دخلت المكسيك القديمة من أحدث مدنها (كانكون) التي لا يسمع بها العالم إلا كلما انعقدت مؤتمرات الحوار بين الشمال والجنوب، ومن الطبيعي لكل من يريد زيارة الهرم الوحيد المكتمل الباقي على سطح الكرة الأرضية في «تشيتزانيتزا» أن يعبر في كانكون التي تبعد مسافة ساعة ونصف الساعة بالسيارة من أهرامات المايا، وله أن يعبرها وإن لم يكن من عشاق الآثار، وسوف يستمتع بدون أبراج وأهرامات. ففي تلك البلدة التي ولدت في السبعينات متع مقطرة تجلب نصف سكان أميركا الشمالية الذين اقتطعوا أكثر الأراضي المكسيكية خصوبة ونفطاً، وجاءوا الآن ليكملوا صنيعهم بالمساهمة في عمليات تلويث الغابات العذراء في شبه جزيرة «يوكاتان» التي تمتلك أجمل الشواطئ الدافئة على الكاريبي.

ولأمر يصعب تفسيره، وبغض النظر عن وجود الفاتنة ذات الهرمين سلمى الحايك، فإن الوجود العربي في المكسيك أقل منه في معظم دول تلك القارة –مع أنها كانت في الذي تكثفت فيه هجرتهم أرضاً مناسبة تماماً لتجارتهم، فقد ذهب السوريون واللبنانيون إلى أميركا اللاتينية في بدايات هجرات التيه، وكل بضاعتهم المسابح والماء المقدس وحبات الزيتون القادمة من مهد المسيح، وكان في المكسيك 15000 كنيسة رعاياها متشوقون لهكذا بضائع، لكن اضطرابات المكسيك المستمرة وثوراتها المتعاقبة جعلتها قليلة الإغراء، فاكتفى أولئك المغامرون بالتمدد باتجاه فنزويلا والبرازيل والأرجنتين لتأتي المكسيك على اتساعها في مرتبة خامسة أو سابعة. ويجب أن نسقط من هذه الحسابات تكساس التي اقتطعها الأميركيون من المكسيك، وفيها أو في «سان أنتونيو» وحدها كثافة عربية لا يضاهيها غير الأرجنتين.

ولا تأخذ المهجرين بالنتائج بل بالمقدمات، فهؤلاء العرب، الذين صاروا رؤساء ووزراء في أميركا اللاتينية، معظمهم نتاج باعة متجولين قال عنهم الشاعر زكي قنصل قصيدة يجب أن يتمعنها جيداً كل من يفكر بالهجرة بعيداً عن الجذور:

**فـراق أهلك جـرح ليس يلأمـه**
**ما في البرية من جاه ومن نشب**
**ويح المهاجر يسعى في مناكبها**
**يقظان من وجل سهران من نصب**
**إذا انتمى القزم ألوى وجهه خجلاً**
**أنّى يعـز شريد ضـائع النـسب؟**

لا رجـله في بلاد الـناس راسية
ولا بمـوطـنه موصـولة السبب
أغرته خلف مرامي الأفق جلجلة
وزلـزلت عقـله أسـطورة الذهب
ومـا تـعلـم إلا بـعـد هـجـرتـه
أن السعادة شيء ليس في الكتب

ويا ويح المهاجر الجديد كم سيصفن مفكراً قبل اتخاذ القرار حين يعلم أن بعض أجداد هؤلاء الذين هاجروا ونجحوا ونجوا انتهوا كما ينتهي الدجاج والغنم أسياخ –شيش طاووق وشيش كباب– على نار هادئة لا شرقية ولا غربية توقد بحطب الغابات العذراء وبنار الجوع عند بعض القبائل من أكلة لحوم البشر.

وهذه ليست تشنيعة بل حقيقة تاريخية سجلتها مجلة «كاراس أي كريتاس» في كانون الأول (ديسمبر) عام 1910، فقد لاحظ الناس حينذاك أن بعض الباعة المتجولين العرب الذين يقيمون في قرية الجنرال روكا ينتقلون إلى القرى المجاورة ببضائعهم ثم لا يعودون، وبعد غياب أكثر من 130 منهم قامت سلطات مقاطعة «الريو نيكرو» بالتحقيق لتكتشف في منطقة غير مأهولة قبيلة من أكلة لحوم البشر عاشت عدة سنوات على لحم المهاجرين الشوام.

أن يقتل الإنسان البدائي ليأكل مسألة يمكن هضمها بصعوبة مقارنة بجذوره الحيوانية، أما أن يقتل من دون جوع فذاك ما يتفوق به الإنسان على حيوانات الغابة جميعاً. وليس في المكسيك اليوم أكلة لحوم بشر، لكن أجدادهم كانوا يقتلون كما تشير أساطيرهم لإرضاء

الآلهة، وقد شاهدت بأم عيني على قمة هرم «تشيتزانيتزا» المكتمل الأمكنة المنحوته في الصخر لوضع قلوب الأسرى لتنهشها الصقور وذوات المخالب، وما ذاك على سبيل الانتقام، إنما نوع من صلوات الشكر التي كانت تقام بعد كل معركة.

وقد عرفت حضارات المايا والأزتيك كمعظم الحضارات القديمة ظاهرة التضحية بالبشر لإرضاء الآلهة، وكان ذلك يتم بصفة دورية، خصوصاً حين تشح الأمطار، وكان الأنكيون أكثر حماساً للتضحية بالبشر لاعتقادهم أن الغيوم لا تسقط أمطارها إلا إذا امتلأت الآبار بالدم، فعند سفوح الأهرامات المكسيكية آبار كثيرة لذلك الغرض، بل في المكسيك العاصمة وداخل أشهر معابدها المخصص لإله الشمس «تمبلومايور» حائط كامل اسمه جدار الجماجم منحوت كاملاً على شكل جماجم بشرية تمت التضحية بها في مواسم الجفاف.

وفي محييط أهرامات «تشيتزا نيتزا» ملعب للكرة يعود إلى القرن العاشر الميلادي ويفسر انتشار اللعبة الشعبية في تلك القارة وقبل عشرة قرون كان المرمى مختلفاً وأقرب ما يكون إلى مرمى كرة السلة، فهناك ثقب حجري على حجم الكرة ثم تثبيته بشكل مائل وعلى اللاعبين ألا يلمسوا الكرة بالأقدام بل بالأكتاف والركب، ولا شك أن الحماس كان موجوداً إلى حد ما بالرغم من معرفة الجميع بالعقوبة التي لا تنتظر المهزوم بل المنتصر.

لقد كانت التضحية تتم كما قال لنا الدليل المثقف بالفريق المنتصر، فبعد كل مباراة يجب تقديم قربان، ومن شدة إيمان المكسيكيين القدامى كان يجب أن يقدموا لإله الشمس أفضل ما

عندهم، والمنتصر طبعاً أفضل من المهزوم، وهكذا كان يساق الفريق الفائز في مراسم احتفالية إلى حتفه. والسؤال الصعب هنا: هل كان يلعب جيداً بالفعل الفريق الذي يعرف ذلك الثمن الباهظ للفوز؟

وما كان المكسيكيون يعبدون الشمس وحدها فبعض آلهتهم الوثنية على شكل وحوش منها النمر الأميركي «أولميكا» و«شاك» إله المطر، وهو على شكل ثعبان ورثته حضارة المايا من حضارة التولا وغيرت اسمه من «شاك» إلى «كوكولكان»، وهو منقوش في كل مكان، والشارع الرئيسي في كانكون الحديثة يحمل اسمه، ولك أن تقدر رهبة هكذا رمز في بلاد يهطل المطر فوق غاباتها العذراء بدون انقطاع ستة أشهر في العام.

وتمتد تلك الغابات على مساحات شاسعة من كانكون إلى ميريدا، وكلها دافئة وفاتنة ومجهولة الأعماق ومثقله بالثمر الغريب، فلا عجب أن حرصت نساء تلك القارة من جابريلا ميسترال إلى إيزابيل الليندي إلى المكسيكية سورخوانا دي لاكروث على مقارنة الأميركيات اللاتينيات بالطبيعة وبالغابات العذراء من حيث الغموض والدفء والفتنة، والمشكلة معهن أنهن لا ينسين تديُّنهن حتى في أدق اللحظات حميمية في حياة البشر كما فعلت «ديلميرا أغوستيني» القائلة:

**سأقص عليك أحلام حياتي**
**في أقصى أعماق الليل الأزرق**
**روحي العارية ترتعش بين يديك**
**وعلى كتفيك يسقط صليبي**

أما التي تفوح بالربيع، وتخصب كالشتاء، وتحاكي الغابات والفصول، وتزبد كالبحار والمحييطات فهي خوانا إيباروبور، والتي فتنت أميركا اللاتينية مطلع القرن الماضي بقصائد متمردة قالت في بعضها:

**أعطيك روحي عارية**
**كتمثال لا يحميه حرير**
**ناصعة البياض كسوسنة**
**مفتوحة على مصراعيها للحب**
**جلدي مشبع من تلك العطور الحية**
**يمكنك أن تقبل ألف مرة**
**لكن لا توجد واحدة بينهن**
**يمكنها أن تعطيك مذاق الجدول والغابة**
**الذي أحمله في داخلي**

نساء أميركا اللاتينية واثقات من سحرهن وقوتهن كزئبق يقاوم عاصفة، لكن القارة ككل لا تملك هذه الثقة، فهي ماتزال تعيش تداعيات «عقيدة مونرو» الأميركية، وهذه ليست كمارلين مونرو ساحرة وبضة الملمس، إنما كالقنفد المتوحش الذي يدمي كل من حوله، فتحت ظلال هذه العقيدة العدوانية التي وضعها سياسي أميركي ثعلب عام 1882 أذلت القارة وأهينت وتم إفقارها وإضعافها لتسهل السيطرة عليها. فأميركا لا تسمح بقوي مستقل بعيد عنها، فما بالك لو كان بجوارها وعلى رمية حجر من مزرعة بوش في تكساس التي اقتُطعت من الأراضي المكسيكية؟

عقيدة مونرو -المنسوبة إلى جيمس وليس إلى مارلين- هي التي حطمت أميركا اللاتينية وقسمتها وأعطتها للتحقير والتضعيف اسم جمهوريات الموز، وهذا يشبه اسم دول ملوك الطوائف الذي يشير إلى أسوأ حقبة في التاريخ الأندلسي حيث ضعف العرب وذهبت ريحهم، وصاروا ألعوبة بيد القوات الخارجية المجاورة، ولا تستبعد المقارنة -يا صاح- فبين تلك الدويلات وهذه الجمهوريات الكثير من الشبه السياسي والخيوط الخفية والمرئية.

ويقوم مبدأ مونرو الذي صيغ في الربع الأول من القرن التاسع عشر على المنع الأميركي وبالقوة إذا اقتضى الأمر لنشوء أي ثقل سياسي أو عسكري في أميركا اللاتينية ودول الكاريبي، وبعد الرئيس جيمس مونرو جاء تيودور روزفلت في أوائل القرن العشرين 1904 ليزيد في طنبور مونرو نغماً ألعن وأكثر ظلماً يعطي الولايات المتحدة الأميركية حق التدخل في أي مكان من أميركا اللاتينية، وفي مرحلة بلغت المنازعات الأوروبية أقصى توحشها وانقساماتها لم يستطع العالم أن يفعل شيئاً أمام تلك العنجهية التي تكررت بعد مائة سنة بالضبط في العراق انطلاقاً من ذات العقيدة التي اكتفت في البداية بسيطرة غير مشروطة على نصف الكرة الأرضية الغربي ليجيء الدور بعد قرن من الزمان على نصفها الشرقي.

والشعوب لا تسكت عادة على العنجهيات -وإن سكت حكامها- لذا تحولت القارة العذراء إلى ساحة مواجهات دامية طيلة قرنين استولت خلالهما أميركا على كل المفاصل الاستراتيجية، ومنها خليج «غوانتانامو» الذي تمت سرقته بهدوء قبل أن يشتهر بتحوله في مطلع هذا القرن إلى معتقل رهيب يذكّر بالمعسكرات النازية.

وكان نصيب المكسيك مِن الاقتطاع كبيراً، فولاية تكساس الغنية بالنفط سُلبت بالكامل وأُلحقت بالولايات المتحدة الأميركية ومعها ولايات وأراض أخرى أقل أهمية. لذا لم يكن غريباً أن تتحول تلك البلاد إلى بؤرة دائمة للثورات وإلى مصنع لتخريج الثوريين. فأوغستو ساندينو، الأب الروحي للثوار الساندييين في نيكاراجوا، تربية مكسيكية صافية. فقد عمل ذلك الميكانيكي البسيط في ورشة مكسيكية قبل أن يعود إلى بلاده لتشكيل حركة المقاومة التي لم تتوقف إلا بعد أن أسقطت سوموزا، وغالباً ما يتم تصوير ذلك الثائر في اللوحات والقصائد بالقبعة المكسيكية الشهيرة التي تكاد تكون معلماً لقارة بكاملها:

**في ظل قبعة مكسيكية**
**جبينه عابس ونظرته حزينة**
**كتمثال إله قديم**
**ساندينو في كل ساحة**

أما أشهر رجال الثورة العالمية الذين حطوا رحالهم بالمكسيك فهو ليو تروتسكي، الذي اختلط تاريخه قبل أن يفقد حياته بفأس بتاريخ المكسيك العاطفي من خلال قصة حب ربطته بفريدا كالو الرسامة الشهيرة التي تحولت في بلد يحب الأساطير ويصنعها بغزارة إلى أسطورة معاصرة.

وقد تحول منزل تلك الفنانة في العاصمة المكسيكية إلى مزار لابد منه في مدينة كانت الأجمل والأثرى في القارة قبل قرنين، وصارت الآن الأفقر والأقبح والأقل أمناً. فهي المدينة الوحيدة في العالم

-ربما- التي تخلع فيها ثيابك على الشاطئ وتدخل لتسبح عدة دقائق ثم تخرج فلا تجدها، وتعتبر نفسك محظوظاً إن لم يكن لصوص ثيابك بانتظارك ليفتشوا «مايوهك» بحثاً عما تخفيه من ثروات خفية.

لقد كان متوقعاً من سياق الأحداث الذي يشي بإعجاب مبكر أن يحب تروتسكي العجوز الفنانة الشهوانية المتفجرة التي تشبِّه نفسها كثيراً بـ«فيراكوجا» إلهة الخصب المكسيكية. لكنه كان -ككل حب ينقصه التكافؤ- عابراً أو قصير العمر، فلم يكن مناسباً للثائر الستيني المتزوج لمدة 35 سنة أن يواصل إلى الأبد كتابة رسائل حب يخفيها كالمراهقين في طيات الكتب التي يعيرها لفريدا اللعوب التي كانت متزوجة هي الأخرى، لكن الإخلاص مصطلح بائت لم يكن له وجود في قاموسها.

ومثل شمعة في الريح التهبت شهوة الحب بين تروتسكي ومضيفته المعجبة بعقله لا بفحولته، ثم انطفأت سريعاً دون أن يدري أحد من البادئ بالخصام، والأرجح أنها فريدا التي ملّت صحبة الشيخ، وكتبت في إحدى رسائلها لصديقة مقربة تعرف أسرارها أنها ضاقت ذرعاً بالرجل العجوز ولم تكن تعني زوجها.

وهناك حكاية سخرية مبطنة تعزز هذا الاتجاه روى قصتها رائد السريالية «أندريه بريتون» الذى كان صديقاً للاثنين. ففى عيد ميلاد تروتسكي، الذي يصادف ذكرى الثورة الروسية، أهدته فريدا بورتريه شخصي رسمته لنفسها وقدمته له في السابع من نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1937 ولم تكن مرسومة بثياب «التيهوانا» الفولكورية التي تحبها، ولا بالـ«يونيفورم» الثوري المرقط، بل رسمت نفسها بثياب أرستقراطية

زاهية مهفهفة بين ستارتين على طريقة النبيلات الفرنسيات. أما تعبير الوجه فكان أقسى مما يحتمله الثوري العجوز المنفي، وكانت الهدية عموماً -وبلغة بريتون- مثل قنبلة ملفوفة بخيط حرير، وهو وصف يليق بشخصية فريدا كالو المتفجرة التي جسدتها سلمى الحايك على الشاشة، وبكل أسف فقد ضاع وقع ذلك الفيلم الذي عرض لسوء حظ سلمى وفريدا في أسبوع الغزو الأميركي للعراق، ويقع متحف فريدا والمعروف باسم «كويو اكان» جنوب غرب العاصمة المكسيكية وفيه ولدت وعاشت معظم سنوات حياتها مع زوجها الرسام «دييغوا ريبيرا» الذي طلقها وتزوجها ثانية وكان يسامح مع كل مغامراتها مع الجنسين لأنه لم يكن أكثر إخلاصاً منها، وهذا ما لم تظهره كثيراً سلمى الحايك في فيلمها عن فريدا كالو وعندها الحق بذلك، فللناس إبداع الفنان، أما حياته الخاصة فملكه الشخصي.

ولا يستطيع المدقق في رسوم فريدا المكسيكية التي أصيب عمودها الفقري في حادث مروع إلا أن يتذكر جوجان بكل رسومه الوحشية وألوانه الحارة. فالمصدر الإلهامي واحد، وهو جزر الكاريبي المشبعة بالضوء والخضرة، والمتحررة نسبياً بعد الزواج الثقافي الأفرو -لاتيني من كوابح الجسد وتعقيداته.

وغير هذا المنزل -المتحف- الذي يقع على تقاطع «لوندريس الليندى» امتلكت فريدا منزلين يربطهما جسرفي ضاحية «سان انجل»، وأحد هذين المنزلين كان -كما ورد في كتاب «هايدن هيريرا» عنها- عش الحب القصير الذي عاشته مع الثائر الروسي الذي سرعان ما أضجرها في الفراش لأنها كانت أكثر ثورية منه، ولكن على طريقتها، وأكثر شهوانية بحكم السن رغم انقصاف عمودها الفقري.

لقد غيرت هذه الفنانة ميلادها من عام 1907 إلى 1910 لا لتصغر نفسها كما تفعل النساء، إنما لتقول وهي المليئة بالفشر المقبول والترغلة الجميلة إنها ولدت مع الثورة المكسيكية التي انطلقت في ذلك العام، وهي آخر الثورات الكبرى في تاريخ القارة قبل ثورة كوبا، كان الناس وقتها قد ضجوا من ظلم الديكتاتور دياز الذي يعتبر الأب الفعلي لكل من مارس بحرفية عالية مهنة تزوير الانتخابات في العالم الثالث. لكنه مع ذلك كان ظريفاً ومشهوراً باستخدام مسحوق الأرز لتبييض وجهه قبل ولادة العمليات التجميلية التي يستخدمها اللاتينيون بكثافة اقتداء بما يفعله مايكل جاكسون.

وإلى دياز الذي أبقاه التزوير حاكماً لمدة 34 سنة ينسب القول الفاجع الذي يلخص مأساة المكسيك مع جارتها القوية التي تملك كل شيء باستثناء الضمير العادل:

**يا لك من مسكينة يا مكسيك**
**كم أنت بعيدة عن الرب**
**وكم قريبة منك أميركا**

لقد طار هذا الديكتاتور بعد أن ثار عليه «غرانسيسكو ماديرا» في العام الذي أحبت أن تنتسب إليه فريدا (1910) لكن أمهات الديكتاتوريين لسن عواقر. فالظلم في تلك البلاد كما في البلاد العربية يتناسل بمعدلات فلكية. والشعوب تخوض دوماً حروباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، وأصعب ما في تاريخ المكسيك أن شعبها خاض أوائل القرن التاسع عشر حرباً ضروساً كرمى لعيون صناع الكاتو الفرنسيين الذين حرضوا نابليون الثالث على تأديب المكسيكيين كي لا ينقطع جوز الهند والمكسرات التي يستخدمونها في صناعتهم.

ولم يكذب الإمبراطور خبراً ولا خذل الحلويات الفرنسية، فقد جرد جيشاً عرمرماً احتل جزءاً من المكسيك وفرض عليها بالقوة حاكماً هو «ماكسيميليان هابسبورجو» الذي تركها من شدة عدله كفرنسا في القرن السابع عشر على زمن ماري أنطوانيت بلا خبز ولا كاتو.

إن شقاء المكسيك بحكامها ومستعمريها واحدة من أكثر الحكايات حزناً في التاريخ الإنساني، وهذا الحزن التاريخي موجود بكثافة في أشعارها وفنونها، فبعد سنوات من حرب الكاتو سوف تكتب الشاعرة المكسيكية «لاروا ميندیث دي كوينكا» قصائد مترعة بالخيبات الإنسانية التي ترتبت على تلك الظروف القاهرة التي جعلت الحياة بلا طعم ولا لون ولا رائحة، وهي حياة الموت أحياناً أرحم منها، تقول لاورا:

**شكواي في روحي محبوسة**
**والعقل والقلب مترعان بالكآبة**
**هل هذه حياة**
**تعال أيها الألم**
**روحي المتوحشة تنتظرك**
**كنسر ينتظر بروميثيوس**

والفرق بين لاورا شاعرة القرن التاسع عشر وفريدا فنانة القرن العشرين أن الثانية لم تستسلم لقدرها، وظلت مع زوجها الفنان تحارب النفوذ الأميركي للسيطرة على الأرواح بعد السيطرة على الأراضي. ففي واحدة من أجمل لقطات فيلمها تقف بصلابة مع دييغو رييرا

الذي رفض أن يزيل صورة لينين التي رسمها على جدارية مجمع فورد في ديترويت الأميركية، وتشد على يده مشجعة. فلا فن دون مبادئ تجعل الفنان يتمسك بحريته –في اللوحة على الأقل– أمام عنجهية سياسية ومادية تظن أنها قادرة على فرض أي شيء بقوتها وشراء أي إنسان بملياراتها.

لقد تحول المكسيكي الطيب الحزين في الأفلام الأميركية إلى عنيف متوحش وغارق في المخدرات. فالسينما تكمل اليوم التشويه الذي بدأته الحملات العسكرية الأميركية والفرنسية والإسبانية لفرض النفوذ على أميركا اللاتينية منذ القرن السادس عشر، ومع تنامي أجيال القمع والفقر والحرمان وتراكم الإحباطات التاريخية والانهيارات الاقصادية والاجتماعية المتوالية قصرت قامة المكسيكي من سوء التغذية، ولم يعد متوسط القامة ولا طويلها كأجداده، أولئك الذين بنوا الاهرامات كالفراعنة، وتركوا رسومهم على جدران المعابد وهم بكل أبهة الإنسان الممتلئ ثقة وحباً بالحياة.

والمثير علمياً أن على جدران تلك المعابد مع الرسوم لغة شبيهة بالهيروغليفية، وهذا ما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن أهرامات مصر والمكسيك بنيت بأيد متشابهة لكائنات من الفضاء الخارجي.

المكسيكيون اليوم، ومع أنهم يسلمون على بعضهم بتحية «لا تكن كسولاً» أكثر أهل الأرض كسلاً، ولا يكاد ينافسهم على هذه الصفة غيرنا، فمن كانكون إلى أكابولكو، إلى تاباسكو، إلى تشيزانيتزا، يقابلك الإنسان المذعور المهمش الخائف، ولا أحد يدري هل قصر القامة من الخوف أيضاً أم من سوء التغذية وحدها.

ومن شدة خوفهم يشاركنا المكسيكيون في المثل القائل «للحيطان آذان» فقد كان عندهم مثلنا حكومات أخلصت للمصالح الأجنبية أكثر من إخلاصها للشعب، ولحرصها على الاستمرار قمعته بالحديد والنار والأجهزة التي تسجل عليه كمنكر ونكير كل أقواله.

من دول ملوك الطوائف إلى جمهوريات الموز، ورغم بعد الشقة زمنياً خيط من المعاناة المشتركة قاد إلى نتائج مماثلة، فالمكسيكي كالعربي شديد الاعتزاز بنفسه ومحب للحماسة والخطابة، ولأنه مثلنا لا يطبق الشطر الشعري القائل «ليس الفتى من قال كان أبي» فليس عنده ما يفعله هذه الأيام غير الوقوف على أطلال الماضي ليذكر العابرين بالغابرين، ويقول لهم بأنه سليل بناة تلك الأهرامات العتيدة.

# (12)

# قيروان سيدي عقبة

سلام عليك، سيدي عقبة يا قتيل بسكرة، وباني القيروان، يا من خاطبت الوحش، وأمرته فاستجاب، وسرت برمحك خلف رؤيا حددت لمن بعدك مكان الصواب والمحراب.

من أجلك جئنا القيروان يا سيد الفرسان. فهذا زمن هجرته الفروسية، ولم يعد أهله ينذرون قبل الطعنة، ولا يغشون الوغى، أما العفاف عند المغنم، فآخر ما يخطر لهم على بال. هذا إذا كانت عندهم مغانم في زمن لا يأتيهم إلا بالخذلان والخسران.

جئناك في الجوار معك نخبة من أعيان المدينة التي بنيتها ودعوت لها أن تمتلئ بالعلم والفقه، فنبغ فيها سحنون وابن الفرات وعاشت مزدهرة أربعة قرون إلى أن أتاها ليخربها أبو زيد الهلالي، ورياب بن غانم، والسلطان حسن، وبقية من أرسلهم الجوع والجفاف إلى تلك الأصقاع والوديان.

من أين ندخل المدينة قبل أن نصل إليك يا سيد الفرسان...؟

أمن باب الجلادين الذين حولوا اسمه، فصار باب الشهداء؟ أم من باب التقوى عن طريق مسجد «سيدي صاحبي» الذي يرقد فيه جثمان الصحابي الجليل أبي زمعة البلوي الذي مات بجلولة ونقلوه إلى القيروان ليقيم له الأمير حمودة المرادي قبة أندلسية وصحناً هو في المعمار غاية الجمال والإتقان؟.

وإن لم نجد من الزاد الروحي ما يكفي، فهل نستسهل، وندخل القيروان من باب أبي الحسن على الحصري القيرواني مؤلف الموشح الذي نسمعه من عبد الوهاب بعده بشرة قرون، فنذوب ونقول للصب لا تسل عن الغد؟ ففي بعض أشكال الشوق الانتظار على جمر خير من اللقاء على جليد متلعثم. لكن أين الجليد والشمس تنسى نفسها ككل من يزور القيروان، ونظن أنها فوق الربع الخالي لا فوق الهودج الخاوي من جمال الحضر والعربان.

والهودج إياه صادفناه أمام برك الأغالبة، والتوانسة كالأندلسيين يسمون البركة فسقية، وأسأل من أين جاءت التسمية وهل يشجع الماء الكثيف العطشى على الفسق؟ ثم أتذكر تلك البركة الفاسقة التي أنشأها الوليد بن عبد الملك في دمشق وكان يملأها بالنبيذ، ويلقي نفسه فيها كلما أعجبه صوت نسائي يترنم بصيدة غزل، وهل في الدنيا أجمل من ماءين يخفق حولهما بجناحيه الحب المحروم الذي جربه شاعر القيروان ابن رقيق، واستعان على مقاومته بتأليف كتاب عن الأشربة لا يضارعه في وضوح قصده غير كتاب النفزاوي والتونسي عن غنج النساء.

علي الحصري القيرواني لم يكن محروماً بما فيه الكفاية،

فموشحه لا يأتي من حرمان بقدر ما يأتي من قناعة بأن اللقيا لا تطفئ نار الشوق، وسامح الله «جميل» ما أبلده من عاشق حين قال:

**يموت الهوى مني إذا ما لقيتها**

**ويحـيا إذا فارقتـها فيـعود**

الهوى القيرواني شيء آخر يكمن في سؤال العارف:

**يا ليل الصب متى غده  أقيام الساعة موعده...؟**

وقبل أن يصل بك إلى ذلك السؤال كان أبو الحسن قد مر بـ«مضناك جفاه مرقده»... وكافة الثوابت التي تجعلك تعرف –وإن تجاهلت– أن يوم العاشق بمليون عام، وأن ما يفصلك دائماً عن الموعد الثاني ألف سنة ضوئية. حتى وإن كنت ترى حبيبك بعد ساعتين، فأجمل الأشواق وأشدها عبقاً تلك التي يعتقها الزمن على نار الانتظار. ومعذرة سيدي عقبة، فحديث الغرام يأخذنا دائماً، لأننا من قوم أبلى صبر أوائلهم حب النساء، وفي مدينتك رائدهم وهو الأمير أو عقال غلبون ابن الحسن بن غلبون الذي كانت المرأة عموده، ومضاربه، واثفيته، وقصيدته، فما احترق بهن وتاب، وزهد في صيد الحجل وملاحقة ربات الحجال كان يقول لمجالسيه:

–زال من قلبي حب الدنيا إلا حب النساء.

ولتوبة غلبون قصة طريفة، فقد قيل إنه كان من شدة حبه لفضاء الأنوثة يتنكر بزي النساء ليحضر أعراسهن. وذات عرس فقدت إحدى الحاضرات جوهرة ثمينة، فأقفلت صاحبة العرس الدار وقالت للنساء، والأمير بينهن وبثيابهن: سنفتش الجميع لنجد

المسروق. فوقف الأمير الأغلبي غلبون في آخر الصف يدعو ربه ألا يعود لمثلها أن نجاه من تلك المحنة، وحصلت المعجزة إذ عثروا على الجوهرة المفقودة مع آخر امرأة كانت تقف قبله، فارتحل على الفور إلى الحجاز، وأقام بالحرم يسقي حجاج البيت إلى أن أطلقوا عليه لوداعته «حمامة الحرم» وتلك ميزة معروفة، فمن يعاشر النساء عن حب بفضاء الأنوثة تتلبسه الوداعة، وإن كان من الصيادين الماهرين، فالطريدة تدرب الصياد على حب صفاتها ليعرف كيف يقتفي أثرها حين تضيع، فهناك -ومهما قيل في إنكار ذلك الأسلوب- علامات يتفق على حبها الطريدة والصياد.

وعن الصيد الفعلي لا المجازي نسألك يا سيدي عقبة، ونريد أن نروي قصتك، فقد يقيم لك أنصار حقوق الحيوان نصباً في بلادهم لأن بلادنا نسيتك، ولك بلاد تغيب عنها قيم الفروسية ينحط فيها الإنسان عن مرتبة الحيوان، لكنك على بسالتك وحروبك كنت رحيماً بالاثنين، فالرواة الذين يحبون «الأسطرة» يقولون إنك حين عزمت على بناء القيروان في موقع غابة كثيفة عامرة بالذئاب والضباع والحيات اتجهت إلى حيواناتها أولاً وقلت:

- يا أهل الوادي اظعنوا، فإنا نازلون وإن ما وجدناه قتلناه... يا أهل الوادي قد أجلناكم ثلاثة أيام.

ويزعم الرواة أن حيوانات الغابة استجابت، وأن بعض من كانوا معك رأوا الحيات تخرج من جحورها هاربة، واللبؤات تغادر حاملة أشبالها، والذئاب تحمل جراءها وتمضي، والعقارب تدب أسرع من المعتاد سمعاً وطاعة لأوامر عقبة، وهذا كله قبل أن تصل

إلى بحر الظلمات لتكتمل أسطورتك القائمة على جهل بالجغرافيا وعشق للتاريخ.

الدليل في مسجد عقبة بالقيروان أخبرني أسطورة أخرى عن المحراب، وهي أن المسلمين الذين نزلوا مع عقبة كانوا مثله لا يعرفون أن خلف المحيط الأطلسي بلاداً ويابسة. ولأن البوصلة لم تكن معهم ضاعت عنهم القبلة في بلاد حديثة عهد بالإسلام. وذات ليلة رأى عقبة بن نافع رؤية في المنام تبعها صوت تكبير فقام وبيده اللواء وتبع الصوت إلى أن توقف عن سماعه، فركز لواءه وقال لمن حوله من المسلمين: هذا محرابكم.

وما يزال ذلك المحراب البسيط قائماً. لكنهم غطوه بأحجار المرمر ليتناسب مع المنبر المصنوع من أبنوس الهند وساجها، وفيه –على ذمة الدليل– 286 قطعة زخرفية ما من واحدة تشبه الأخرى، وعلى زاوية المحراب اليسرى دائرة الإمام سحنون التي كان يعالج بها المرضى، وهي مكتوبة بتقنية حروفية عالية تجعل الميم وسط الدائرة لكلمات أربع ما أجملها، وما أبلغ أن ترددها في محراب حيكت حول بانيه الأساطير «الحمد للحميد المبدئ المعيد» «الحمد للحميد المبدئ المعيد... الحمد للحميد.

ومن التقاة والأولياء الذين كانوا يعالجون بالأسماء الحسنى، إلى الولاة الذين ترتبط بهم كل الفعال القبيحة، وهؤلاء أضافوا حجرة خشبية إلى جانب المحراب من خشب لبنان ليصلّوا فيها حماية لأنفسهم، لكنهم خجلوا من الاعتراف بالفزع، فقالوا إن الحجرة لاجتماعات المشورة، ولو اعترفوا بالخوف لما لامهم أحد في عالم

إسلامي تعلم منذ أن طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب أن المحراب أفضل مكان لعمليات الاغتيال السياسي لقادة ترتبط في شخصياتهم صفات القيادة بخصال الإمامة التي لا تكتمل دون منبر ومحراب. وأعمدة مسجد عقبة 365 على عدد أيام السنة، وليس به نوافذ لكن له سبعة عشر باباً، ثمانية من كل طرف على عدد أبواب الجنة، والتاسع في الوسط، وهو حسب اعتقاد القوم باب الفردوس، والأبواب موزعة على 33 متراً -أي على رقم أعمار المسلمين في الجنة، فكلهم يعودون شباباً -كما قال لي الدليل يا سيدي عقبة- وعنده حق فدون الشباب المثالي عند سن الثالثة والثلاثين يصبح الحديث عن وفرة الحوريات مسألة يصعب فهمها عند من يقفون عند القشور ولا يملكون أدوات فهم الرموز والتفاسير.

وماء جامع سيدي عقبة -الجامع الكبير- كان يأتي من برك الأغالبة التي تطالعك خارج سور المدينة القديمة، وعلى بابها يربض جمل مسكين من عهد سيدي عقبة على ظهره هودج يتصور حوله السياح، وهذه وظيفته الوحيدة في هذه الأيام، فمن يحتاج إلى هودج ليختبئ وكل من حولك كاسيات عاريات، المقيمات منهن والوافدات؟

وقبل أن تصل إلى البرك -الفسقيات- وتغتسل بما نهر زرود القادم إلى القيروان من الجزائر لابد أن تمر، إن كنت قادماً من الحمامات في ضواحي المدينة، بالبشاشمة وبلواعر والغويلات، وعلى طرقاتها فلاحات تونسيات بكل ألق الألوان، لكن البهجة لا تستمر، فسرعان ما تمر بقرية أولاد عامر الكئيبة لتذكر الأخيرة ببني هلال وعامر، وبالكارثة الهلالية التي دمرت القيروان حين سقطت المدينة

قبل نهاية التغريبة عند أسوار تونس بحدود عام 443 للهجرة، وهو عام مشهود في التاريخ والشعر. فكل مراثي شعراء القيروان تدور حول الكارثة الهلالية ونتائجها، وهو ما لم نستوعبه في المشرق، لأننا نظرنا إلى تريبة بني هلال من زاوية عاطفية، وتابعنا غرام ابن السلطان حسن بسعدى بنت الزناتي خليفة أكثر مما انتبهنا للخراب الذي أوقعه الأعراب بتونس الخضراء بعد أن وصلوها، وليس على بساط ريح كبساط الفنان فريد الأطرش الذي تخصص بليالي الأنس في الشمال الأفريقي، وترك لأخته أسمهان ليالي الأنس على ضفاف الدانوب.

وبعد الكارثة الهلالية غابت ليالي الأنس القيروانية، ولاحقاً سوف يأتي ابن خلدون ليبني نظرية كاملة في علم التاريخ عمادها الخراب أحدثه الهلاليون والعامريون بالقيروان وضواحيها. وطبعاً فالمقدمة لا تخلو من تحامل، فابن خلدون في النهاية ابن الشعب الذي تعرض للغزو، ورغم تنقله في القارات ظل إلى آخر أيامه يحن إلى حي الحلفاوين الذي ولد فيه بتونس أيام الحفصيين.

ومن أبرز من رثى القيروان بعد كارثتها الشاعران الصديقان ابن شرف وابن رشيق القيرواني، والثاني أكثر لوعة من الأول، ففي قصيدته النونية لا يكتفي ببكاء الذي كان، إنما يصور الدهر وكأنه أحد الحساد الذين أصابوها بعين قاتلة:

**أترى الليالي بعدما صنعت بنا**

**تقضـي لنا بتـواصل وتـدانِ**

**نظـرت لها الأيام نظرة كاشح**

**ترنـو بنظـرة كاشـح معـيان**

وفي القيروان أكثر من ابن رشيق، أشهرهم الناقد الفذ صاحب كتاب العمدة، وفيها غير مؤلف موشح: يا ليل الصب متى غده؟ أكثر من حصري الأكثر شهرة بينهم صاحب كتاب «زهر الآداب» الذي قال عنه مواطنه ابن رشيق: «كان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبي تمام».

واسجع أو لا تسجع. ففي البلاد الحارة الظل سيد الكلام والغرام والنظام، وجميع هؤلاء كانوا يستظلون تحت سقوف أسواق المدينة القديمة التي تبدو هذه الأيام من كثرة تناقضاتها وأصباغ لافتاتها كعجوز تتصابى، وكيف لا تتاصبى العجائز في القيروان وفيها على ذمة مؤرخيها 46 حماماً أبردها يعيد الشباب إلى أبلد العظام، وعلى باب كل حمام لابد أن تجد عطاراً بالانتظار، وقد دخلنا دكان أحدهم صدفة، فنقلنا عطر الورد إلى عطر الكلام، مشيراً إلى قصيدة مكسرة نقلها من كتاب قديم وخطها على الجدران، وهي معلقة في القناعة داخل مدينة طالما حطمها جشع التجار، ومن قصيدة الشاعر المجهول على جدار العطار أستأذنك يا سيدي عقبة في نقل هذه الأبيات:

**عليك بتقوى الله إن كنت عاقلاً**

**يأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري**

**فكيف تخاف الفقر والله رازقاً**

**فقد رزق الطير والحوت في البحر**

**ومن ظن أن الرزق يأتي بقوة**

**ما أكل العصفور شيئاً مع النسر**

**فكم من صحيح مات من غير علة**

**وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر**

وقرأنا، بل واقتنعنا قبل أن نقرأ. ففي القيروان القديمة التي ما تزال تحتفظ بسورها البالي رائحة مخدرة معطرة تشمها منذ أن تطل من بوابة السور على مكتبة «رضا العجرة» ثم تنداح القصص والحكايات والبشر، وفيهم من يخرج لتوه من كتاب التاريخ ليرحب بك في أزقة ضيقة نظيفة تشهد على عبقرية عقبة في اختيار المكان وزرعه بالأمان والريحان، فقد اختارها في ذلك الموقع بداية كثكنة عسكرية بعيدة عن سيوف الروم في البحر، وعن رماح البربر في الجبال، ولم يكن يدري أن تدميرها سيتم بالأسلحة الإسلامية على يد بني هلال، وحين قتله كسيلة البربري ودفن في بسكرة بالجزائر ذهب معه الأمان، وظل الريحان يعرش على الشرفات التونسية دون أن يغنى مع العراقيين منذ إبراهيم بن الأغلب والمعافري:

**يا زارع الريحان حول بيـوتنا**

**لا تزرع الريحان لست مقيماً**

ولم يُقِم سيدي عقبة في القيروان، لكن رائحة فروسيته وأريحيته ماتزالان تعطران سماء الزمن، وتشهدان على براعة حسده في معرفة عبقرية المكان.

# (13)

# ابن الخطيب في فاس وسلا

عند مفترق التناقضات بدأ يتعرف على شخصيته، وفي النقطة التي يلتقي فيها العذب بالأجاج بنى لنفسه عشاً، وقرر أين يقيم، وحين أفاق واكتشف أنه في مدينة نصفها زهاد والنصف الآخر قراصنة وزع وقته بالقسطاس بين الفريقين، فقد كان فيه هو الآخر بذرة قرصان، ومشروع ناسك، وما كان يدري أحُبُّه لملذات الجسد أقوى أم تعلقه بخلود الأرواح...؟!

لقد عرف لسان الديب بن الخطيب في كتب التاريخ والأدب بثنائياته المتراكمة التي يأخذ بعضها برقاب بعض، فهو ذو الرياستين، وذو الوزارتين، وذو العمرين، وذو الميتتين، وذو القبرين، ولأمر ما أهمل المؤرخون والأدباء وصفه بذي الشخصيتين، فلم تكن دراسات علم النفس قد تقدمت، ولم يكن الطب قد اكتشف مرض الانفصام الذي لا تنطبق أعراضه على أحد بمقدار انطباقها على ذلك المشرد الغرناطي الذي كان يسمو فيبلغ الذروة، ويسفل فيحسده الحضيض، وكيف لا يكون كذلك وهو رجل لاعبته الدنيا وأتعبته، فرفعته وخفضته،

وكادت تلقي به خارج الملعب من الشوط الأول لولا قدرته الفذة على اللعب بحبال المتناقضات في عصر يستمد جماله من تناقضه الوسيم.

من غرناطة بدأت المحنة، وفي فاس انتهت، وفي الطريق ما بين غرناطة وفاس استراحة اسمها «سلا» قضى فيها لسان الدين بن الخطيب سنتين ونصف السنة يعتبرها من أحلى سنوات عمره. ففي «سلا» وحدها انتصرت شخصية الشاعر على السياسي، وبدأ ابن الخطيب يكتشف طاقاتاه النبيلة المعطلة التي لم يستطع استغلالها في السنوات التي قضاها تائهاً بين دهاليز السلطة، ودسائس القصور، وكان ابن الخطيب قد عرف سلا في أيام عزه، وقبل أن يأتيها كلاجئ سياسي. لذا نراها تقفز إلى سطح ذاكرته في أول قصيدة ينشدها بعد محنته الأولى حين أحس بالضياع الكبير، وتحول كما يقول عن نفسه إلى طائر بلا وكر ولا جناح:

**سـلا هل لديها من مخبـرة ذكر**
**وهل أعشب الوادي ونـم به الزهر**
**وهل باكر الوسمي داراً على اللوى**
**عفت أيامـها إلا التـوهم والذكـر**
**بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى**
**باكنافـها والعيش فينان مخضـر**
**وجوى الذي ربـى جناحـي وكره**
**فها أنا ذا ما لـي جنـاح ولا وكـر**

ولكي تحس بجمال وادي سلا الذي يتساءل عن زهرة ابن الخطيب ما عليك إلا أن تتأمله من ضفة أبي رقراق اليمنى، وهناك

سترى السحر الحلال مجسداً، وستدرك سر اختيار ابن الخطيب لتلك البلدة للإقامة فيها، فنهر أبي رقراق، الذي يقسم الرباط وسلا إلى أختين تتنافسان في الحسب، يصب في المحييط عند خاصرة سلا، ويؤثرها على شقيقتها الصغرى ببعض المحاسن، وقد استقر ابن الخطيب في بداية أمره بشالة ليكتفي بمراقبة النهر ويطل على المحييط عن مسافة. لكن البحر كالفاتنة اللعوب لا يعترف بالحب العذري، ولا يقبل بالغزل عن بعد، فإما أن تغرف فيه بكليتك أو تظل محبوساً على اليابسة. وهكذا وجد المشرد الغرناطي نفسه يهبط الرابية، ويعبر النهر ليستقر في بيت متواضع في قلب سلا في الشارع الذي يعرف حالياً بدرب الشماخ الذي وصلنا إليه بمساعدة الوثائق التاريخية ومعونة كوكبة من أهل الفكر والأدب في المغرب الذين لم يبخلوا بمشورة، ولا ضنوا بوقت رغم وصولنا إليهم في زحمة الانتخابات.

وسلا من ألطف المدن على الأطلسي، وتراها من أي جهة تقصدها تلوح لك بكل ما في قلبها المليء بالتاريخ في حب ومودة.

لاحت لنا سلا من موقعنا فوق الجسر كجوهرة سقطت فوق الرمل من جيب قرصان هارب، فدخلناها من باب المريسة بعد أن أومأنا مسلمين لبويب الريح وباب فاس، وكنا قد وصلناها عصراً عكس نصيحة لم نعمل بها، فقد قيل لنا إن أهل سلا يصيبهم نوع من المس عصر كل يوم، ولهذه التشنيعة الرباطية أصل تاريخي، فقد كان أهل الرباط في عصر الهروب الموريسكي الكبير من الأندلس يتجمعون في الأودية التي تطل على سلا من علٍ، وكان سكان سلا يتدربون على

فنون القتال بعد صلاة العصر، فيخرجون إلى شاطئ البحر، يركضون ويتمرنون ويلعبون الألعاب القتالية العنيفة، مما دفع الموريسكيين ومعظمهم أهل فنون وطرب إلى الاعتقاد بأن نوبة غير مفهومة من الجنون تصيب جيرانهم في سلا في وقت محدد من اليوم. لكننا لم نشاهد –يشهد الله– ما يريب عصر ذلك اليوم الصيفي البديع الذي بدأنا به زيارة سلا باجتماع مع مؤرخها الكبير عبدالله الصبيحي مدير خزانة الكتب الصبيحية التي تضم عشرات الألوف من المخطوطات، وقد ضحك مؤرخ سلا، ونحن نخبره بعزمنا على زيارة زاوية النساك التي كان يتردد عليها لسان الدين ابن الخطيب وقال: لن تجدوا زاوية النساك حسب ما قرأتم عنها، فقد دخلت ضمن أملاك مستشفى العيون، أما درب الشماخ فما يزال في عهده لكن لا أحد يدري بالضبط أين موقع دار ابن الخطيب فيه.

تركنا خزانة الكتب الصبيحية واتجهنا يميناً، وما هي إلا دقائق حتى أشارت السيدة جليلة العلوي، التي انتدبتها جمعية أبي رقراق الثقافية لمرافقتي في سلا، إلى زقاق ضيق وقالت: من هنا يبدأ درب الشماخ الذي كانت فيه الدار التي كتب فيها ابن الخطيب مذكراته المعروفة باسم «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».

كانت حدة الحر قد خفت، وبدأ النسيم الرقيق يعطي للمدينة مذاقاً محبباً ونكهة مختلفة، والظاهر أن ابن الخطيب وصلها عصراً أيضاً، وبعد رحلة صيفية شاقة وهموم، فهو القائل عن نسيمها:

**وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا**
**فلا خاطري لما نأى وانجلا انجلى**
**ولا نسخت كربي بقلبي سلوة**

**فلــما ســرى فيه نسـيم سلا سلا**

ويستحسن ألا تدفعنا هذه الأبيات إلى المبالغة بحسن الظن بابن الخطيب وموقفه من تلك البلدة التي آوته وقت الشدة، فسرعان ما سيقلب لها ظهر المجن وينقلب عليها ليهجوها بإقذاع وفحش في رسالته في المفاضلة بين مالقة وسلا التي نشرها المستشرق الألماني ماركوس مولر في النصف الثاني من القرن قبل الماضي سنة 1866.

ولم يتوقف هجاء لسان الدين بن الخطيب للبلدة عند البشر الذين يصفهم بالخفة، ولا عند المكان الذي يصفه بأنه ملعب للبراغيث، إنما وصل به الأمر إلى هجاء زهورها وأعشابها، فريحانها لا رائحة له كما يزعم:

**أهل سلا صاحت بهم صائحة**

**غاديــة في دورهــم رائحــة**

**يكفــيهــم من عــوز أنــهــم**

**ريحانــهم ليــس له رائــحة**

أن يكون لسان الدين بن الخطيب ناكراً للجميل، فتلك صفة لم يستطيع أن ينفيها عنه كبير المعجبين به أحمد بن محمد المقري، الذي خصص له ثلاثة أجزاء من كتاب نفح «الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، لكن يفضل أن نبتعد عن تلك الصفات الجاهزة في قاموس الهجاء العربي لنتعامل مع ذي الوزارتين بلغة علم النفس الحديث الذي يساعد على إلقاء بعض الأضواء على الشخصيات

التاريخية القلقة والمتناقضة، ويعطي بعض المفاتيح لفهم شخصية لسان الدين بن الخطيب المركبة والمعقدة.

وأغلب الظن أن ذلك الشاعر اللبيب والسياسي الأريب كان يعاني من شكل ما من أشكال مرض انفصام الشخصية المعروف باسمه العلمي «شيزوفرينيا».

والشيزوفرينيا أو انفصام الشخصية مرض يعود اكتشافه إلى العالم السويسري «بلولر»، أول من استخدم ذلك المصطلح، ثم جاء السكوتلندي «لينج» ليصفه بدقة في كتاب «النفس المقسمة».

ومن أبرز أعراض الانفصام فقدان الثقة بالمحيط الاجتماعي، وعدم القدرة على التواصل مع الآخرين والعيش بشخصيتين متناقضتين لا تدري إحداهما ما تصنعه الأخرى. ولم يكن غريباً أن ينتقل لسان الدين بن الخطيب من المدح إلى الهجاء، ومن الموقف إلى نقيضه. فقد كان يعاني من تلك النفس المنقسمة، وقد يكون تعقيده الداخلي هو السبب في حبه لمدينة فاس التي تشبه طرقاتها تعرجات الأنا الداخلية كما تعتقد الرسامة «أناييس نان»، ربما كان لمرض الأرق الذي شكا منه طول حياته، ولقب بذي العمرين بسببه أثره في تفاقم حالته العصابية، ولا شك أن الأحداث السياسية التي عصفت به وبغرناطة تزلزل أقوى الشخصيات تماسكاً، فقد سار ذات صباح مع سلطانه أبي حجاج للاحتفال بالعيد، وفي المساء كان يسير في جنازته بعد محاولة اغتيال موفقة. ثم قبض عليه مع الغني بالله في انقلاب إسماعيل فانتقل من حالة السلطة المطلقة التي كان يمارسها بلا منازع إلى وضع اللاجئ المشرد الذي يتكسب بالدعاء عند

القبور، وهكذا صار العالم بالنسبة له سلسلة متلاحقة من المصائب، وأصبح البقاء على قيد الحياة وفي جائرة الحظوة فناً لا يمارس ابن الخطيب غيره. وهل تستطيع غير تلك الشخصية التي ترى النوائب من مكملات الناموس وضروراته أن تخرج بتلك الدعوة الجارحة في واقعيتها للتعامل مع مصائب الحياة، وكأنها الأصل؟ أما ما تبقى فليس إلا استثناءات ضئيلة وتنويعات لتأكيد أولوية الخطوب في حياة البشر:

إذا ذهــبت يميــنك لا تضــيّع
زمانك في البكاء على المصيبة
ويسراك اغتنم فالقوس ترمي
ولا تــدري أرشقــتها قريــبة
وما بغــريبــة نــوب اللــيالــي
ولكــن النــجاة هــي الغــريبة

يسلمك درب الشماخ إلى السويقة، ومنها إلى السوق الكبير حيث تتوزع المهن على الأسواق بحسب اختصاصها، وما أن تجتاز سوق الخرازين والقيسرية باتجاه باب حساين حتى تنداح المقابر على مد البصر، وقد وصف لسان الدين مقابر سلا في كتاب «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» فقال عنها: «مقبرتها المنضدة عجيبة في الانتظام، معدودة في المدافن العظام، وتتأتى بها للعبادة الخلوة، وتوجد عندها لهموم السلوة».

وبين تلك القبور المشهورة بتنظيمها قابل ابن الخطيب المتصوف الأشهر الشيخ أحمد بن عاشر الذي ما يزال مقامه الرابض بالقرب من البرج الركني مقصوداً إلى هذه الأيام، وهو لا يبعد كثيراً

عن الزاوية الطالبية وحيّها الأقرب إلى البحر حيث يقع منزل أفضل من كتب عن تراث الأندلس، وأعني به المرحوم إبراهيم الكتاني. وفي تلك المنطقة ما بين مقام ابن عاشر وزاوية عبدالله بنحسون لابد أن نتذكر محمد عابد الجابري، ونلاحظ أنه لم ينصف في تقسيم أهل العرفان والبرهان، فعند المغاربة من العرفانيين ما يفوق المشارقة.

والعجيب في أمر المغاربة على طول الأطلسي أنهم يعطون أجمل المواقع التي تطل على البحر للموتى، ويحشرون الأحياء في الحارات الداخلية، فالمنطقة من باب العلو في الرباط إلى البرج الركني في سلا محجوزة للموتى الذين تداخلت قبورهم مع الإنشاءات الهندسية الحديثة. فلم تعد تثير المواعظ والاعتبار كما كانت في الأيام الخوالي.

وأذكر أنني رأيت في المقبرة المتصلة بقبة سيدي الخطاب بالرباط غرفة لمولد كهربائي في مدخل المقبرة وقد كتب عليها «ممنوع الدخول. خطر الموت». فجاءت تلك العبارة في ذلك المكان غريبة بعض الشيء. فماذا سيجد الإنسان بعد أن يجتاز بوابة المقبرة إلا الموت والقبور؟ وليست عبارة الغرفة الكهربائية أكثر غرابة من مواطن قابلته بالقرب من ضريح ابن عاشر يزور أمواته، وبعد سلام وجملتين من الكلام، وما أن عرف الحزين جنسيتي حتى وضع أحزانه بين قوسين وبدأ يستفسر مني عن أحوال صباح فخري!

ولم يكن لسان الدين بن الخطيب، قبل مقابلته لابن عاشر بالمقابر وانقطاعه للتأمل في سلا، قد اهتم بالتصوف وألف عملاً كاملاً وربما تعديل فصول كتاب المحبة المعروف باسم «روضة التعريف بالحب الشريف» وهو الكتاب الذي أورده -كما يقول الرواة-

حتفه، إذ لم يجد خصومه الذين أرادوا الإيقاع به في أواخر حياته إلا بضع عبارات مسجوعة في ذلك الكتاب استندوا إليها لاتهامه بالقول بالحلول، وهي التهمة الجاهزة ذاتها التي دحرجت رأس الحلاج في بغداد قبل محنة ابن الخطيب اللاحقة في فاس.

لقد كان تكوين ابن الخطيب يبعد عن التصوف والصوفية بوناً شاسعاً، وقد أكمل انفصامه تلك الصورة، فجعله أقرب إلى النوعية التي يطلق عليها المغاربة اسم «الزواكرة» وهي فئة تظهر الزهد والنسك، وتبطن حب الدنيا، وقد أشار إلى ذلك التناقض صديقه الكاتب ابن مرزوق الذي تسلم منه رسالة مكتوبة ينصحه فيها بالتوقف من كذا... وكذا، فقال: والله إنه يأتي كل ما نصحني بتركه. والحقيقة أنني لم أنتبه إلى تلك المفارقة اللاصوفية في شخصيته إلا أثناء وقوفي أمام زاوية النساك التي شهدت داخل آجرها الأحمر البديع وتحت قبابها الخضراء مغامرات ابن الخطيب مع الدراويش الذين أراد أن ينتمي إليهم فضلّ الطريق، وخانته العبارة بحيث لا تدري. هل اغتاله حبه للسجع، أم تدخله في ما لا يعنيه وتظاهره بغير ما فيه؟!

والواقع أني لم أعثر على جواب لذلك السؤال في سلا التي غادرتها من باب خميس، وكان عليَّ أن أنتظر إلى اليوم التالي ليأتيني الجواب على شكل التماعة برقت في الذهن بالقرب من مكناسة الزيتون التي أطال الوقوف على بوابتها القطار المتجه بنا إلى فاس المحروسة.

«إذا كنت في المغرب لا تستغرب» هكذا قيلت لي هذه العبارة منذ زمن، وحفظتها، لذلك لم أستغرب حين اكتشفت أن القطار

البطيء يصل قبل القطار السريع إلى فاس، لأن القطار المسمى مجازاً بالسريع وقف أكثر مما سار، فاتسع زمن التأمل، وتتالت المقارنات. وفيما كنت أهم بالسؤال عن سبب التأخير تذكرت عبارة لابن الخطيب من كتاب الإحاطة يعترف فيها بدس أنفه في ما لا يعنيه فيقول: «قال مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله في شاعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها...».

وهذا العبارة الاعتراضية المسجوعة عينة حقيقية من نثر ابن الخطيب الذي لا يمكن أن يؤلف جملتين دون أن يسجع، وقد قتله كما تجمع الروايات قوله «ريح صرصر، وقاع قرقر» الذي اقتبسه، وأعاد استخدامه في غير موضعه فاتخذها خصومه حجة للتدليل على استهتاره بالمقدسات، وهو من تلك التهمة براء. وبعيداً عن تلك النهاية الدموية يعتقد المستشرق الإسباني «إميليو غرسيه غوميث» أن أسلوب ابن الخطيب صعب حتى على العرب، وهو في ذلك على حق، فقد أحال السجع، الذي جنى عليه حياً وميتاً، كتاباته إلى متاهات لفظية تجلب بإيقاعها الرتيب النعاس، وتمنع أعتى الأدمغة من التركيز والمتابعة، وقد لا يكون له في اتباع هذه الطريقة ذنب، فهو ابن عصر ظن أهله أن السجع نثراً منتهى البلاغة، والمديح شعراً من أرقى فنون القول، وإن لم يكن ابن الخطيب سيد من صال فهو بين أقرانه أبلغ من قال، لأنه كان –كما لاحظ أحمد أمين باقتدار– العصارة الذهبية للتجربة الأندلسية التي نضجت وبلغت أوج عطائها في القرن الثامن للهجرة.

عبرنا فاس الجديدة دون اكتراث، وما هي إلا دقائق حتى

البطيء يصل قبل القطار السريع إلى فاس، لأن القطار المسمى مجازاً بالسريع وقف أكثر مما سار، فاتسع زمن التأمل، وتتالت المقارنات. وفيما كنت أهم بالسؤال عن سبب التأخير تذكرت عبارة لابن الخطيب من كتاب الإحاطة يعترف فيها بدس أنفه في ما لا يعنيه فيقول: «قال مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله في شاعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها...».

وهذا العبارة الاعتراضية المسجوعة عينة حقيقية من نثر ابن الخطيب الذي لا يمكن أن يؤلف جملتين دون أن يسجع، وقد قتله كما تجمع الروايات قوله «ريح صرصر، وقاع قرقر» الذي اقتبسه، وأعاد استخدامه في غير موضعه فاتخذها خصومه حجة للتدليل على استهتاره بالمقدسات، وهو من تلك التهمة براء. وبعيداً عن تلك النهاية الدموية يعتقد المستشرق الإسباني «إميليو غرسيه غوميث» أن أسلوب ابن الخطيب صعب حتى على العرب، وهو في ذلك على حق، فقد أحال السجع، الذي جنى عليه حياً وميتاً، كتاباته إلى متاهات لفظية تجلب بإيقاعها الرتيب النعاس، وتمنع أعتى الأدمغة من التركيز والمتابعة، وقد لا يكون له في اتباع هذه الطريقة ذنب، فهو ابن عصر ظن أهله أن السجع نثراً منتهى البلاغة، والمديح شعراً من أرقى فنون القول، وإن لم يكن ابن الخطيب سيد من صال فهو بين أقرانه أبلغ من قال، لأنه كان –كما لاحظ أحمد أمين باقتدار- العصارة الذهبية للتجربة الأندلسية التي نضجت وبلغت أوج عطائها في القرن الثامن للهجرة.

عبرنا فاس الجديدة دون اكتراث، وما هي إلا دقائق حتى

لاحت لنا فاس الأصلية كمحارة نصف مفتوحة في حضن جبل زالغ، فاقتحمناها ورهبة التاريخ تملأ قلوبنا من باب سيدي العواد، الذي أسلمنا إلى ساحة الصفارين، حيث وجدنا شجرة توحد الله على قرع النحاس منذ ألف عام، فلا هي شبعت من التسبيح، ولا النحاس ذاب إجلالاً لتقواها. وبعد ساحة الصفارين بعدة خطوات إلى الأعلى يربض جامع القرويين الذي أسسته فاطمة الفهرية عام 245 هجرية ليكون أول جامعة في الإسلام، ولا أعرف لماذا تخيلت وأنا أقف في وسطه لسان الدين ابن الخطيب، وهو ينتقل بين الميضأة الوسطى، والمحراب. ثم سرح الذهن إلى نسائنا العظيمات. فقدرنا -كما يبدو- أن توجد جامعاتنا الكبيرة على أيدي إسماعيل، وقد كان لفاطمة الفهرية أخت اسمها مريم، أسست بعد أختها بسنتين جامع الأندلس على شمال الوادي. وما أن تغادر جامع القرويين من بوابة شارع الشماعين باتجاه ضريح مولاي إدريس حتى يأتي من يقترح عليك أن تنعطف لمشاهدة المدرسة البوعنانية التي قابل فيها لسان الدين بن الخطيب العلامة عبد الرحمن بن خلدون للمرة الأولى، وشهدت قاعاتها تسجيل النسخة الأولى من رحلات ابن بطوطة الذي راسله لسان الدين إلى تامسنا من سلا.

تقع البوعنانية بزخارفها التي ترتفع إلى الفضاء في الطلعة الكبيرة، ومن المرجح أن يكون ابن الخطيب قد سكن في جوارها لبعض الوقت في سنواته الأخيرة قبل أن يلاقي مصيره المحتوم، ومن الحقائق التي لا خلاف حولها أن تعلق ذلك الشاعر بفاس ودولة المرينيين من الأسباب الرئيسية لنكبته، لأن خصومه حين ألبوا سلطانه الغني بالله عليه لم يجدوا أقوى من تهمة تعاطفه مع سلاطين فاس، وفي العصر

المضطرب الذي نتحدث عنه ما عليك إلا أن تتذكر –حتى تكتمل الصورة– بأن مدح أهل المغرب عند أهل الأندلس في القرن الرابع عشر الميلادي يلقى الاستجابة السلبية نفسها التي تجدها حين تمدح العراقيين أمام أهل الكويت في نهاية القرن العشرين، فقد كانت هناك أطماع سياسية وجغرافية، وكان لسان الدين بن الخطيب رئيس وزراء غرناطة وصاحب السلطة المطلقة فيها يقف موقف الدفاع عن ولائه لبني نصر، وكان المهاجمون جميعاً من تلاميذه الذين رفعهم ورقاهم ووضعهم في أعلى المناصب وأبرزهم اثنان: عبدالله بن زمرك، الذي تزين أشعاره إلى جانب أشعار لسان الدين جدران قصر الحمراء، والقاضي النباهي الذي جرب فيه ابن الخطيب قدرته على القدح فلقبه بالجعسوس، وألف في كتاب «خلع الرسن في التعريف بأحوال أبي الحسن» وكانت المؤامرة –كما نعتقد– أوسع وأعقد من الإحساس بالضالة الذي داهم ابن زمرك والنباهي –حسب اعتقاد عبد الهادي بوطالب، صاحب كتاب «وزير غرناطة»– فالأسس غير الشخصية التي تقوم عليها المؤامرة واضحة كل الوضوح، وهي تعاطف وزير غرناطة المبرر مع سلاطين المرينيين، ثم يأتي العامل الشخصي. فقد كان ابن الخطيب يعرف منذ محنته الأولى أن المتآمرين عليه من دائرته الخاصة، وأن ديوانه وخوانه هو المجمع لخوانه والطامعين فيه، وقد سجل تلك المعرفة في بيتين جميلين قال فيهما:

تلون إخواني علي وقد جئت
على خطـوب جمة ذات ألوان
ما كنت أدري قبل أن يتنكروا
بأن خِواني كان مجمع خُوانَي

وكان عليه أن ينتبه لمن حوله بعد التجربة القاسية الأولى، لكن إذا شاء القدر عمي البصر كما يقولون، وهكذا كان، فقد أوغر تلاميذه صدر سلطانه عليه حتى اضطر للهرب إلى تلمسان، ومنها إلى فاس ثم جاءوا ليضربوا ضربتهم الأخيرة في فاس فكان من جملة مطالب بني نصر أن يعيد إليهم المرينيون جبل طارق، وأن يسلموهم لسان الدين بن الخطيب، وهي المرة الأولى في التاريخ التي تساوي فيها السياسات الدولية بين رجل وجبل.

في اليوم المشهود، وفي فاس التي تؤرجحك بين الواقع والحلم دون أن تعطيك وثيقة انتماء لأحدهما، عقدت المحاكمة، وللعرب محاكم تفتيشهم التي يبزون فيها الإسبان، وأحضر ابن الخطيب من زنزانته وهو يرفل في قيوده، وكان الزمان قد أطاح سنده، وشتت الذين يعضدونه ويحمونه، وكانت صحيفة الاتهام بيد تلميذه ابن زمرك الذي تلاها دون أن يرمش له جفن، وأمام ذلك العقوق الذي يدفعك إلى فقدان الثقة بالدنيا وأهلها خانت «الأستاذ» فصاحة الدفاع فأعيد إلى سجنه على أمل عقد جلسة أخرى، لكن أعوان سليمان بن داود لا وقت لديهم لمحاكمات عادلة، وهكذا بيتوا أمرهم ذات مساء ووصلوا إليه ليلاً مع بعض زعانفة الأندلس، فخنقوه داخل الزنزانة، ودفنوه خارج باب المحروق قبل صياح الديك.

ويبدو أن انتقام الجهل من العبقرية لا يمكن إلا أن يكون ممسرحا وعلى رؤوس الأشهاد، فقد أخرجت جثة ابن الخطيب من القبر، وأحرقت وأعيد دفنها بعد عدة أمتار من اللحد الأول ليستحق صاحبها لقب «ذو القبرين» وقد استحقه بجدارة مع ألقابه المثناة الأخرى...

ولقد خطر لي، وأنا أقطع الخطوات القليلة من باب «بوجلود» وباب «المحروق» أن أحاول تحديد البقعة التي كتب فيها لسان الدين بن الخطيب قصيدته التأملية الأخيرة في الزنزانة الفاسية، فراوغتني فاس التي تلتف على نفسها كسرٍّ مغلق ولسان حالها يقول: دع نبش الجذور واستمتع بالشذا. وهكذا بدأت وقبل الوصول إلى ضريح المشرد الغرناطي الذي ما يزال قائماً إلى اليوم بدندنة أبيات من تلك القصيدة المؤثرة والمكتوبة على المتقارب الذي يشبه إيقاعه خبوب خيل المنايا:

**بعـدنا وإن جاورتـنا البيوت**

**وجئـنا بوعظ ونحن صموت**

**وأنـفـاسـنا سكـتت دفـعـة**

**كجـهر الصلاة تلاه القنوت**

**وكـنا عظاماً فصـرنا عظاماً**

**وكنا نقـوت وها نحـن قـوت**

**وكم سـيق للقـبر في خـرقة**

**فتى ملئت من كساه التخوت**

**فقل للعدا ذهب ابن الخطيب**

**وفات ومن ذا الذي لا يفـوت**

**فمـن كان يفـرح منـكم لـه**

**فقل يفرح اليوم من لا يموت**

بين زيارتي لضريح لسان الدين بن الخطيب عام 1993 وزيارة المقري له في القرن السادس عشر، أربعة قرون تقريباً. وقد كان

يومها -الضريح- ينزل إليه بانحدار كما قال، والظاهر أنه أتاه من الهضبة التي يحتلها المستشفى الذي يحمل اسمه الآن. أما اليوم فهو إلى جانب الطريق العام على مسافة ثلاثين متراً من باب المحروق، ويصعد إليه بسبع عشرة درجة إسمنتية، وله باب بني أمالته الشمس المحرقة إلى الإحمرار الكابي، وزَيّن منتصفه رتاج طويل في آخره قفل صيني قال لي حفار القبور الذي يقيم مقابله إن مفتاحه في «الدائرة ديال القائد».

وزعم الحفار -واسمه للتوثيق غير الضروري- محمد مولو الملياني، الذي يقيم هناك منذ عودة محمد الخامس من منفاه، أن باب الضريح لم يفتح أبداً طيلة وجوده إلا في العام الماضي حيث اضطر القائد إلى كسر القفل القديم الذي أغلقه الصدأ إلى الأبد، ووضع القفل الجديد مكانه.

وتجاور ضريح ابن الخطيب قبور عصرية. فمن جيرانه الزاهية بنت الحبيب التي توفيت عام 1984 ومحمد بن سعيد الدليمي 1982 وفضيلة بنت عياد التي لبت نداء ربها في الحقبة الماضية أيضاً، وللضريح الذي أمر ببنائه الملك محمد الخامس شباك بني يطل على باب المحروق الذي يقودك إلى شوارع لا نهاية لها تذكرك بمسالك كبار الزهاد حيث يسلمك الدرب آخر، وتظل نهاية الطريق في مذاهبهم عسيرة الوصول إلا على العارفين، وأغلب الظن أن حفار القبور كان يعيش مرحلة كساد وبوار، فقلة الموت عند الحفار كساد تجارة، وهذا ما دفعه إلى الانطلاق في المحادثة ومحاولة استدراجي قبل قليل، فلما حكيت له عن جاره لسان الدين طلب أن يسمع بعض شعره فلم

أتذكر وسط المقابر إلا الموشح الذي قلد فيه ابن سهل فبزه، وصارت موشحته عنواناً ونموذجاً لذلك الفن البديع:

**جادك الغـيث إذا الغيث همي**

**يا زمان الوصل في الأندلس**

**لــم يكــن وصــلك إلا حلــماً**

**في الكرى أو خلسة المختلس**

وهنا أشكلت الكلمة المكررة على حفار القبور، فسأل عن معنى «الغيث» فقلت: هذه والله تعني المطر. لكن جنازة تصلك في أيام الكساد تندرج أيضاً تحت بند الغيث، والإغاثة، فانفجرت أسارير حفار القبور عن ضحكة كشفت عن الحجم المهول للسن الوحيد الذي تركه له الزمن، وقال: أتدري أني قد بدأت أحب هذا «اللسان دين»؟ وودعت الحفار وأنا أقول لنفسي: عنده حق. فمن ذا الذي لا يحب تلك العبقرية العربية التي أنضجتها شموس المغرب بعد طردها من أندلس الأحلام.

# (14)

# حراطون في شنقيط

يشيب الناس في بلاد شنقيط قبل أن يشبوا.

شيء ما تصيبهم به الصحراء فيجعلهم يجفون من الداخل فتتساقط أوراقهم من دون أن يحسوا بها ومن دون أن نراها. ولو كانت عيون البشر مزودة بأشعة فوق بنفسجية فربما رأينا داخل كل شنقيطي مساحات شاسعة من «ورقو الأصفر شهر أيلول (سبتمبر)» الذي يذكرنا على سبيل العبث بأننا لا نتذكر بلاد شنقيط (موريتانيا) إلا إذا قام فيها انقلاب، أو إذا أقامت علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل لتغيظنا وتجعلنا نسأل -ولوجه العبث أيضاً- لماذا ظلمت الجغرافيا تلك البلاد؟ ولماذا جاء التاريخ ليكمل لها ما أنقصته الجغرافيا؟

الشناطقة ينشدون مع الشاعر الشعبي الخليجي «حنا العرب يا مدعين العروبة» وعندهم بدل الشاعر مليون. لذا يسمون موريتانيا بلد المليون شاعر، فالشعر عامة علامة العروبة الفارقة —كما نظن- وكأن أحداً لم ينشد أو ينظم غيرنا.

غير العروبة الشعرية عند الشنقيطيين ميزة عروبية أخرى يشبهون فيها سورية والعراق. فهم بعد هاتين الدولتين الدولة العربية الأكثر تنظيماً للانقلابات في التاريخ، فتلك بلاد تعود ظاهرة وفرة الانقلابات والفتن فيها إلى القرن الثامن الميلادي. أما أنجح انقلاباتهم التاريخية التي وضعتهم على الخارطة فهو بلا شك انقلاب عبدالله بن ياسين ويحيى بن عمر الذي أوصلهما إلى مراكش، حيث أسسوا دولة المرابطين التي قامت في أول عهدها على سواعد بدو موريتانيا.

وقبل هذه الحقبة كانت موريتانيا بلغة عبدالله العروي «المغرب الغربي»، فنادراً ما سمع الناس أخبارها إلا مقترنة بجيرانها بني رستم في تاهرت والمدراريين في سجلماسة.

ويستطيع كل من سمع عن طبيعة التحالفات التي أسقطت آخر انقلاب أن يقول مطمئناً: ما أشبه اليوم بالبارحة. فالدنيا هناك لم تتغير إلا قليلاً جداً منذ القرون الوسطى ومازال النموذج –الأسروي القبلي– المسلح بهيبة عبيده الافتراضيين وثروته من الإبل والماشية والأسلحة –يتحكم في الحياة وأساليبها وقوانينها، ويجعل الشناقطة يشيبون قبل أن يشبوا.

وإن كنت لا تصدق ذلك فاقرأ معنا هذا التعجب الشاعري الغريب لشاعرهم الأحدث نسبياً محمد محمدي وهو يستغرب وقوعه بالغرام في سن الثلاثين:

**إن لاح من عهد الصبا منزل قفر بكيت**

**وفي بعض البكا وضح العذر**

**ليـالـي أسـباب الوصـال متـيـنـة**

**وافـنان دوح اللهـو فـيـنانة خضـر**

**فما أنت واستقـبالك اللهـو والصبا**

**وقد أدبـرت عشرون من بعدها عشر**

ورغم المليون شاعر وقصائدهم التي تبلغ المليار فإن كل ما نعرف عن الشعر الموريتاني قبل المؤلفات الحديثة يعود إلى مصدرين أساسيين؛ الأول «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن الأمين الشنقيطي، والثاني المعاصر «الشعر والشعراء في موريتانيا» للدكتور محمد المختار ولد أباه.

وكنا قد فهمنا «ولد أباه»، فكل ولد ابن والده، لكن أثناء الانقلابات ظهرت لنا نسبة جديدة هي «ولد ابنه» فكيف يكون الإنسان ابن ابنه؟

هذه معضلة موريتانية صعبة، والذين لهم خبرة طفيفة ببلاد شنقيط يعرفون أن هذا النوع من الأسماء ولد في مناطق شهدت تحرراً جنسياً نسبياً، خصوصاً في المناطق التي احتلها الفرنسيون، حيث تجد ولد الكولونيل وولد القوميسار وولد أمه، وكلنا أولاد أمهاتنا لكن حين تشيع هكذا أسماء في مجتمع بدوي كان متشدداً تصبح دراسة التطور الاجتماعي لشنقيط مثيرة للفضول، لأنها خالية من النفاق الشرقي المعهود في مسائل النسبة والنسب. وكل من ذهب إلى شنقيط يلاحظ دوراً مهماً للنساء في الحياة الاجتماعية والفنية، فغير ظاهرة بنت الميداح وأخواتها، فإن النساء هن اللواتي يفتتحن الأسواق ويتاجرن، بينما رجالهن يفكرون بالانقلابات والنساء الشقر

القريبات على شواطئ جزرالكناري في «لاس بالماس» وكله في جلسات الكسل الشنقيطي اللذيذ حول كؤوس الشاي الأخضر الذي يتقاسمه الأحرار الجدد والقدامى، الذين يجمع بينهم على اختلاف الألوان الخوف من المستقبل الغامض وحب النساء العاملات. فالمرأة العاملة عكازة الرجل الكسول، وقد زرت في نواكشوط العاصمة ذات يوم سوقاً ليس فيه تاجر واحد من الذكور. فالموريتانيات السمراوات بثيابهن الزاهية الفضفاضة وعصابات الرأس المبتكرة يدرن ذلك السوق العجيب الذي تظنه من ألف ليلة وليلة. ولأن المرأة الشنقيطية متحررة اقتصادياً كان من الطبيعي أن تتحرر اجتماعياً. ففي تلك البلاد ولد فن «التبراع» وهو نوع من الشعر الشعبي تتغزل به النساء بالرجال علناً من دون توريات وحرتقات كما يحصل في غزل المجتمعات المشرقية التي لم تتحرر بعد من نفاقها التاريخي كالشنقيطيات.

ابن خلدون الذى لا يحب البدو ولا الأعراب أهمل موريتانيا -رغم مروره فيها- وأوشك أن ينسب السياسة كلها في تلك المنطقة لدولة بين صلاح الدين في غانا (الدولة الغانية) وهي الدولة التي أقامت المنارة الثقافية الأفريقية المليئة حتى اليوم بالمخطوطات العربية «تمبكتو» التي حاول الموريتانيون أن ينافسوها بمدينة «ولاته» التي مدحها ابن بطوطة -الذي لا يعرف التحفظ- بتحفظ شديد في أواسط القرن الثامن الهجري، وربما كان سفره إليها من أوائل رحلاته القصيرة قبل أن يدمن الترحال خارج طنجة، وربما لم يجد ما يقوله عنها. فالحياة في المغرب الأقصى متشابهة إلى حد كبير.

إن عرب موريتانيا، الذين يعيشون على تميز اللون الأبيض والقدرة على نظم الشعر، محاطون بطوفان من الأفارقة الذين لم

يستطع وقفهم نهر السنغال، وفي الماضي كان يؤتى بهم من غانا ومالي والنيجر كعبيد اسماً وفعلاً، أما اليوم فهو عبيد بالفعل فقط. لأن التسمية طارت في إطار التحديث ولإقناع العالم المتمدن بأن موريتانيا دولة عصرية.

لقد زرت تلك البلاد في موسم ازدهار الانقلابات العسكرية أواخر السبعينات وشهدت أثناء وجودي بنواكشوط واحداً منها، ولم أذهب وقتها للتفرج على الانقلابات إنما للاحتفال مع أحفاد سبارتاكوس بقرار إلغاء العبودية. فشنقيط حفظت لنفسها مكاناً بالتاريخ من أواخر الدول التي تلغي العبودية.

وهناك في بيوت الصفيح على أطراف العاصمة البدوية تعرفت على أكبر وأعمق أحزان سبارتاكوس قائد أعظم ثورات عبيد روما. فقد قيل إن أكبر جراحه تشكلت لا في ساحة المعركة، ولكن بعد أن أسر وصلب وفرح وهو على صليبه، لأن عبيد روما سيضطرون لرفع رؤوسهم وتطليق عادة الانحناء الدائم وذلك لرؤيته معلقاً يدفع ثمن التمرد على الأسياد، ولدهشته فإنهم كانوا يمرون تحت خشبته من دون أن يرفعوا أعناقهم ليتعلموا عادة جديدة غير الانحناء والطاعة العمياء، وتلك لحظة اصطادها الشاعر الجميل صاحب أنجح الإسقاطات التاريخية في الشعر العربي بعد السياب وهو أمل دنقل. حيث يقول في مقاطع من قصيدة «كلمات سبارتاكوس الأخيرة» من ديوان البكاء بين يدي زرقاء اليمامة:

**يا إخوتي الذين يعبرون في الميدان**
**مطرقين**
**منحدرين في نهاية المساء**

**في شارع الإسكندر الأكبر**

**لا تخجلوا ولترفعوا عيونكم إليَّ**

**لأنكم معلقون جانبي على مشانق**

**القيصر**

**فلترفعوا عيونكم إليّ**

**لربما إذا التقت عيونكم بالموت في عيني**

**يبتسم الفناء داخلي لأنكم رفعتم رأسكم**

**مرة**

**سيزيف لم تعد على أكتافه الصخرة**

**يحملها الذين يولدون في مخادع الرقيق**

**والبحر كالصحراء لا يروي العطش**

وشنقيط بحر وصحراء، وعبيدها عطشى للحرية التي جاءتهم على طبق من ذهب سرعان ما رفسوه. فحين تجوع لا تستطيع أن تأكل حرية بالمايونيز، ولا كبرياء بالشطة، ولا قصيدة حماسية بصلصة الطماطم، لأن تركيبة سلطة الفقر معروفة وحين تكون حديث عهد بالحرية لا تعرف مكاناً تذهب إليه حين تجوع غير خيمة أسيادك القدامي.

شنقيط جرح قديم بقلبي من تلك الأيام. ففي نواكشوط فهمت مأساة سبارتاكوس على الطبيعة. فقد كنت فيها بعد الحقبة الافتراضية لإلغاء العبودية لأنقل للعالم كما ظننت -آنذاك- صرخات فرح آخر عبيد التاريخ بالحرية. لكني درت عدة أيام من كوخ صفيح إلى آخر على أطراف نواكشوط لأرى ابتسامة مسرة أو أسمع شهقة

فرح، وعدت من المهمة التاريخية مهموماً مدحوراً أكثر من سبارتكوس وعبيد روما. فلا أحد هناك -نتيجة للجوع والفقر- أحس بعظمة ما يجري، وكل -الحراطين- الذين كرعت معهم أكواب الشاي الأخضر ودققت في عيونهم ومشاعرهم وتحت جلودهم كانوا يودون العودة إلى أسيادهم حيث اللقمة مؤمنة حتى في أيام البطالة.

إن «الحراطين» -وهو الاسم الجديد للعبيد القدامى- مصطلح عربي دقيق ابتكره الشناقطة، وهم أهل فصاحة وبيان، ونحتوه جرياً على قواعد العرب من كلمتين هما الحر الطارئ، وكان الشنقيطي البليغ الذي شرح لي المصطلح الجديد «الحراطون» رجلاً دائم الابتسام، مع أن اسمه الشيخ البكاي، ولم أساله من أين أتى بذلك الاسم. فقد كان الزمن زمن انقلابات، وصوت التاريخ يصرخ في الجموع مع كل بيان انقلابي بكلمات سبارتاكوس الحزين اليائسة بعد أن رفض العبيد أن يدعموه، وأن يرفعوا أعناقهم لعناق الحرية التي حرمهم منها القياصرة:

**يا إخوتي الذين يعبرون في الميدان في**
**انحناء**
**منحدرين في نهاية المساء**
**لا تحلموا بعالم سعيد**
**فخلف كل قيصر يموت**
**قيصر جديد**

وبعيداً عن الانقلابات والقياصرة القدامى والجدد يعتقد الدكتور محمد مختار ولد أباه أن من دلائل عروبة اللهجة الحسانية

أن الشناقطة مايزالون يثبتون التثنية في شكلها النحوى الأصلي، وأنهم يستخدمون بعض صيغ الفعل المزيد إضافة إلى إثبات المضاف والمضاف إليه من دون زوائد. ولم يسأله أحد -بارك الله فيه- عن كل هذه التفاصيل، فهذه الانقلابات وحدها تثبت عروبة موريتانيا وتزيد. لكن هناك مخاوف دائمة عند الشناقطة من التشكيك بعروبتهم. فعلم الأنساب يعيدهم إلى أصول بربرية - أمازيغية. لذا يتمسكون باللغة على خطى شاعر من بني حسن الذي يقول مبدداً تلك المخاوف:

**أنا بني حسن دلت فصاحتنا**

**أنّا إلى العرب العرباء ننتسب**

**إن لم تقم بيـنات أننـا عرب**

**ففي اللسان بيان أننـا عرب**

وقد حل ابن خلدون لبربر صنهاجة -وبعض الموريتانيين منهم- هذا الإشكال الكبير في تاريخه الشهير، ولا أعرف على وجه التحديد إن كان هذا العالم والمؤرخ الجليل جاداً حين أوجد للبربر نسباً عربياً خالصاً، وأعادها إلى -بر- أحد أبناء قيس عيلان، والذي أعرفه عن ابن خلدون أنه حقود نكود، وهذه فئة لا تعرف المزاح. فلعله كان جاداً في دعواه في عصر كان الانتساب فيه للعروبة من المفاخر، وليس من المساخر. فوقتها كانوا في المشرق والمغرب يفتخرون بالنسب العربي الأصيل، ويسخرون فقط من كثرة الانتساب المفبرك للعروبة على طريقة أبي نواس:

**ارفق بزيد إذا حركت نسـبته**

**فإنه عـربـي من قـواريـر**

لقد كان بربر المغرب الأقصى والأوسط وبدو الجزيرة العربية يجمعهم ما هو أهم من اللغة العربية وهو أسلوب الحياة البدوي المشترك. فأنت إلى اليوم ترى الموريتانيين والليبيين –مثلاً– أقرب من أسلوب الحياة إلى مجتمعات الخليج العربي، ليس في خيمتي القذافي وولد الطايع وحدهما، ولكن في مسائل كثيرة أخرى لا تجدها عند المصريين والسوريين والعراقيين الذين ينتمون إلى حضارات زراعية مستقرة نسبيا قبل عصر الانقلابات طبعا.

في نواكشوط المعاصرة اختلفت الصورة. فالحراطون الذين عبر أجدادهم نهر السنغال، وفارقوا منحنى النيجر عنوة أحياناً في قوافل تجارة العبيد، أو هرباً من الجفاف، الذي يضرب باستمرار تلك المناطق، هم الأغلبية السكانية. لكنهم، ولحداثة عهدهم بالحرية، لم يستفيدوا منها من دون وزن سياسي. لذا تظل الانقلابات والتغيرات في إطار القبائل العربية والمعربة، فابن حنانة وولد منانة يعرفان أنهما في مجتمعات ينقصها الحنان والتكافل والمساواة، وتقوم منذ ابن خلدون على مبدأ القسوة والقدرة على التدمير. لذا يظل فضاء شنقيط متوتراً رغم بساطته. ففي «نواذيبو» الشمالية تحس بالراحة أكثر، لكنك كلما اقتربت من نواكشوط واتجهت جنوباً أو غصت في رمال «تججكة» تعود قروناً إلى الوراء، وتفترض أنك اقتربت من عوالم البساطة التي ينشدها كل رومانسي. لكنها فرحة كفرحة الحراطين لا تدوم. ففي بلاد شنقيط التي نسيتها الجغرافيا على أبعد نقاط الأطلسي، وغادرها التاريخ مع خروج المرابطين منها واستقرارهم في غيرها تخدعك الصحراء بهدوئها وتسحرك بهيبتها، ومع ذلك لا تطمئن أبداً، ففي ذاك الفضاء المفتوح، الذي ضاعت فيه أمم

وحضارات، خلطة من التوجس والخوف والترقب غير المريح، والأسئلة التي لا تنتهي عن طبيعة الهوية ومخاطر فقدانها.

نواكشوط التي كانت بفندقين -أحدهما لم يكن قد اكتمل- حين زرتها أواخر السبعينات في موسم ازدهار الانقلابات وحقبة تحرير العبيد، لا تبدو محبة للتغيير. فهي على حطة إيدك -كما يقول المشارقة- فالأحرار الطارئون يملأون شوارعها، والأحرار القدامى مشغولون بتصفية حساباتهم، والشارع الذي لم يكن مسفلتاً حول فندقها الوحيد وسط المدينة ينافس الربع الخالي برماله الفاخرة.

لقد حفظت نواكشوط درس سبارتاكوس ووعته جيداً:

**معلق أنا على مشانق الصباح**
**وجبهتي -بالموت- محنية**
**لأنني لم أحنها حية**

ولا نعرف إن كانت ستستمر في خذلانه. فذات يوم، لن يكون بعيداً، سيطالب الحراطون بعد أن يملوا من الانتظار حول كؤوس الشاي الأخضر بحصتهم من الانقلابات في الحياة السياسية في بلاد محصورة بين البحر والصحراء، ولا تستطيع مهما كان دهاء عربها وبربرها أن تؤاخي الماء والنار، ولا أن تحفظ تلك التوازنات التاريخية والجغرافية والاجتماعية المعقدة ما لم تفتح آفاقها لتغيير حقيقي يساوي -فعلاً وليس قولاً فحسب- بين عبيدها وأحرارها.

# (15)

# لصوص بغداد ورهبانها

لقبوها مدينة السلام، مع أن الفتن والحروب لم تهدأ حولها وداخلها منذ أن وضع اللص مقلاص أول حجر فيها.

بغداد يا بلد الرشيد!

لماذا ليس يا بلد المنصور...؟ فهو بانيها ومخطط رساتيقها وقطائعها، وفيها قصر الخلد الذي حكم منه المنصور ثلاث قارات، وظل شامخاً وحده إلى أن جاءت زبيدة زوجة الرشيد وبنت قرية قصر القرار، وجلست تراقب من مشربياته وشناشيله حرب ولدها الأمين مع أخيه المأمون، ويومها كانت الفروسية سيفاً لسيف، ورمحاً لرمح، ولا يفوز فيها غير صاحب القلب الشجاع والذراع القوي وليس مثل هذه الأيام، حيث لا ينفع قلب ولا ذراع. وعلى ذكر القلوب، هل بقي عند العالم قلب، وهو يتفرج صامتاً على حرائق أعرق عواصم الدنيا؟

ومن المنصور إلى المهزوم أصر التاريخ على أن يربط بغداد بالرشيد. ففي عهده عاشت أزهى عصورها، وخلال حكمه كان حكام

الشرق يكتبون إلى حكام الغرب «...إلى نقفور كلب الروم» ولا يقفون على قدم واحدة أمام الحائط خوفاً من الأستاذ الرومي.

«بغداد من البلاد كالأستاذ بين العباد» هكذا قال الصاحب بن عباد لابن العميد حين سأله عنها، وكان عصر الرشيد قد ولى وضاعت معه الملامح العربية للمدينة بالرغم من نكبة البرامكة. فهذه المدينة تبتلى كل حين بمن يعمل على خرابها. مرة مع البرامكة، وأخرى مع التكارتة، ودجلة له مواسمه التي يفيض بها حبراً ودماً، ودموعاً، لأمر لا يفهمه غير الفلكيين يحدث ذلك دوماً في صفر، وتبدأ مصائبهم يوم الأربعاء. لذا يتشاءم العراقيون من ذلك اليوم، ويستعيذون بالله كلما جاء صفر، هل بدأت الحرب يوم الأربعاء؟ وهل نحن الآن في صفر...؟

صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» ابن قتيبة الدينوري لاحظ أنهم لا يرتاحون لذلك اليوم. فلا يسافرون فيه ولا يتزوجون ولا يتاجرون، وقد عرف الحجاج عنهم ذلك فواقعهم في معركة دير الجماجم يوم الأربعاء، والسري الرفاء ابن الموصل هو القائل:

**أربعاء حسامه مشهور — حين يأتي وشره محذور**
**نتوقاه أول الشهر إن دار — وتحشاه أخراً لا يدور**

والثعالبي في يتيمة الدهر قال كالدينوري: إنهم يعتبرون شهر صفر الهجري نحساً، وآخر أربعاء منه (لم يأت بعد) يجمع النحسين، وكما تطير البغداديون القدامى من البرامكة، وظلوا يوغرون صدر الرشيد عليهم حتى نكبهم، تطيَّر البغداديون المعاصرون من التكارتة، وفي صفر نكتشف أن هناك الكثير مما لا نعرفه مايزال مسطوراً على

صفحة النجوم التي قالت لأبي جعفر قبل أن يعمرها: تشجع فلن يموت فيها خليفة حتف أنفه. لكن ماذا عن الرؤساء؟

الزيارة اليتيمة التي قمت بها لبغداد في السبعينات علمتني أن أهرب من جديدها إلى قديمها الأعتى والأرقى.

وفي الروايات أن المنصور استشار العرافين قبل بناء بغداد، وأن أحد خواصه أوشك أن يصرفه عن بنائها بعد أن أخبره أحد الرهبان أنها تبنى على يد لص اسمه «مقلاص». فهل قدر بغداد أن يبنيها لص، ويهدمها معتوه...؟

ونكتشف من سياق الرواية أن الحرامي مقلاص هو الخليفة المنصور نفسه –حاميها حراميها- والرجل الذي دشن عملاً بوصية راهب في دير أسوار مدينة السلام المنذورة للدم والنار. حكاية اللص الباني طويلة نقتطف بعضا منها من ياقوت الحموي الذي يرويها على لسان شخص اسمه علي بن يقطين. يقول علي: «كنت في عسكر أبي جعفر المنصور حين سار إلى الصراة يلتمس موضعاً لبناء مدينة، فنزل الدير الذي على الصراة في العتيقة، فما زال على دابته ذاهباً جائياً منفرداً عن الناس يفكر، وكان في الدير راهب عالم فقال لي: لم يذهب الملك ويجيء؟ قلت: إنه يريد أن يبني مدينته، قال: فما اسمه؟ قلت: عبدالله بن محمد، قال: أبو من؟ قلت: أبو جعفر، قال: هل يلقب بشيء؟ قلت: المنصور. قال: ليس هذا الذي يبنيها، قلت: ولم؟ قال: لأننا قد وجدنا عندنا في كتاب نتوارثه قرناً عن قرن أن الذي يبني هذا المكان رجل يقال له مقلاص، قال: فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه، فقال لي: ما وراءك؟ قلت: خير ألقيه إلى أمير

المؤمنين وأريحه من هذا العناء، فقال: قل، قلت: أمير المؤمنين يعلم أن هؤلاء معهم علم، وقد أخبرني راهب هذا الدير بكذا وكذا، فلما ذكرت له مقلاص ضحك واستبشر، ونزل عن دابته فسجد وأخذ سوطه وأقبل يذرع به، فقلت في نفسي: لحقه اللجاج. ثم دعا المهندسين من وقته وأمرهم بخط الرماد، فقلت له: أظنك يا أمير المؤمنين أردت معاندة الراهب وتكذيبه، فقال: لا والله، ولكني كنت ملقباً بمقلاص، وما ظننت أن أحداً عرف ذلك غيري، وذاك أننا كنا بناحية الصراة في زمان بني أمية على الحال التي تعلم، فكنت أنا ومن كان في مقدار سني من عمومتي وإخوتي نتداعى ونتعاشر، فبلغت النوبة إليَّ يوماً من الأيام وما أملك درهماً واحداً، فلم أزل أفكر وأعمل الحيلة إلى أن أصبت غزلاً لداية كانت لهم، فسرقته ثم وجهت به فبيع لي واشترى لي بثمنه ما احتجت إليه، وجئت إلى الداية وقلت لها: افعلي كذا واصنعي كذا، قالت: من أين لك ما أرى، قلت: اقترضت دراهم من بعض أهلي، ففعلت ما أمرناها به، فلما فرغنا من الأكل وجلسنا للحديث طلبت الداية الغزل فلم تجده فعلمت أني صاحبه، وكان في تلك الناحية لص يقال له مقلاص مشهور بالسرقة، فجاءت إلى باب البيت الذي كنا فيه فدعتني فلم أخرج إليها لعلمي أنها وقفت على ما صنعت، فلما ألحت وأنا لا أخرج قالت: اخرج يا مقلاص، الناس يتحذرون من مقلاصهم وأنا مقلاصي معي في البيت، فمزح معي إخواتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة، ثم لم أسمع به إلا منك الساعة. فعلمت أن أمر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه. ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها، وجعل لها أربعة أبواب وأحكم سورها وفصيلها، فكان القاصد إليها من الشرق يدخل من باب خراسان، والقاصد

من الحجاز يدخل من باب الكوفة، والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام، والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة.

وهدم المدن دوماً أسهل من عمارتها، وإذا كان بانيها لص باللقب، فقد شهدت منذ أيامه ومنذ أيام البرامكة إلى التكارتة ملايين اللصوص سرقوا ونهبوا وخربوا، وظل دجلة الخير يسيل بالرفاه والبركة وفي حضنه ابنه دجيل... أرأيتم مدينة تدلع نهراً غير بغداد...؟

وليس في بغداد شارع بجمال شارع أبي نواس، حيث المسقوف والمسيج ودزينة أنواع من الجعة العراقية التي خلقت لشاطئ دجلة بحاناته وصعاليكه وموسيقاه.

وبغداد المنذورة للحب والشعر والموسيقى لها مواعيد ثابتة مع الغزاة كل صفر، لكنها تعرف كيف تحارب بكبرياء المدن الجريحة، ودوماً من كبوتها تقوم رغم طغاتها وغزاتها. والصراة المذكورة في نص ياقوت، حيث تدور المعارك، يمر بها نهر البزازين الذي يرضع كما يقول عبود الشايجي، شارح الرسالة البغدادية، للتوحيدي من نهر كرخايا الذي أعطى اسمه أثناء حرب الخليج لرواية تافهة «دماء على نهر الكرخا»، ومتى لم تكن مياه أنهار بغداد غير مخلوطة بالدماء؟

وهناك خلاف على الصراة وقرنها بين العلامة مصطفى جواد، والدكتور أحمد سوسة صاحب «أطلس بغداد». فالدكتور جواد يعتقد أن قرن الصراة إلى الشمال من الجعيفر بمحاذاة مسجد العتيقة، وعنده بني الجسر الحديدي المعروف الآن باسم جسر الصرافية، وكانوا

سابقاً يطلقون عليه اسم جسر باب الطاق، وقربه كان موقع مارستان عضد الدولة، حيث كانوا يحتجزون المجانين، وليتهم حافظوا على تلك العادة القديمة التي كانت تحول دون خرابها مع البصرة.

ذاك قلب بغداد التاريخية في زمن ما كان أهلها يستبدلونها إذا اضطرو إلا بجنان النعيم، فياقوت ينزع لقب مصر عنها، ويمنحه تحبباً لبغداد «أم الدنيا وسيدة البلاد». وعمارة بن عقيل حفيد جرير لا يرى لها مثيلاً بين مدن الدنيا:

**ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين**
**على تقـلـبها فـي كل ما حـين**
**ما بين قطـربل فالكرخ نرجسه**
**تندي ومنبت خـيري ونسـرين**
**تحيا النفـوس برياها إذا نفحت**
**وخـرشت بين أوراق الرياحـين**

أما ابن زريق الكوفي، وهو غير علي بن زريق، صاحب المطلع الذائع:

**اسـتودع الله في بغداد لي قمراً**
**بالكرخ من فلك الأزراد مطلعه**
**ودعـته وبـودي لو يودعـنـي**
**صفو الحـياة وإنـي لا أودعـه**

فيحذو حذو ياقوت وحفيد جرير ويرفض مقارنتها بأي مكان في الدنيا:

**سافــرت أبغي لبــغداد وساكنها**

**مثلاً قد اخترت شيئاً دون اليأس**

**هيــهات بغداد والدنيا بأجملها**

**عندي وسكان بغداد هم الناس**

وكما لا تعدم الحسناء ذاماً، فإن بغداد الفاتنة وجدت من يذمها، وبينهم خليفتها ليوم واحد «عبدالله بن المعتز»، الذي كان يتعصب لسامراء ضدها وينقم عليها ما قاساه فيها من مهانة بعد انقلابه الفاشل في مدينة الانقلابات الثانية بعد دمشق:

**أطال الهم في بغــداد ليلــي وقد يشقي المسافر أو يفوز**

**ظللت بها على رغمي مقيماً كعــنــين تعــانــقــه عــجــوز**

وأكثر من ذم بغداد سلماً من لم يجد حظه في حواريها. فهي ككل المدن الكبرى والاستهلاكية حفاوتها بالفقراء قليلة، وما أطرف ما قال أحدهم عن غربته فيها:

**بغــداد أرض لأهــل المال طــيــبة**

**وللمفاليس دار الضنك والضــيق**

**أصبحت فيها مضاعاً بين أظهرهم**

**كأننــي مصحف فــي بيت زنــديق**

أما نثراً فكان خير من تغنى بها أبو حيان التوحيدي في الرسالة البغدادية التي أطلقها تحت اسم مستعار «أبو المطهر الأزدي» ليأخذ راحته بالكتابة، فالإبداع من خلف قناع يعطي الكاتب حرية قلما يستطيعها باسمه الذي به يعرفه الناس. ووصف بغداد يأتي على لسان بغدادي ظريف من أهلها لقبه التوحيدي أبا القاسم، يقول أبو القاسم:

«... ما أنسى بلدتي وتربتي، ولا أرضي ببغداد جنة الخلد، ولو عجلت لي، بلدة هي الأمل والمنى والغاية القصوى معشوقة السكنى جوها عريان، وكوكبها يقظان، حصباؤها جوهر، ونسيمها عنبر، وترابها مسك أزفر، يومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هني، وشرابها مري، وجوها مضي، حصاها عقيق، وهواؤها نسيم، وماؤها رحيق، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة بها منقوشة».

ويضيف التوحيدي لعروسه البغدادية نصاً آخر يقرن فيه جمال الجغرافيا بجمال الروح الإنسانية التي تعيش في رقعتها: «دجلة مشحونة بالمراكب والزواريق، محفوفة بالقصور والجواسق، ترتفع ما بينها أصوات الأغاني، وخفقات النايات والسواني، وأصوات الملاحين وزعقات المؤذنين، إن رأيتها ترى والله جمالاً وكمالاً وتسمع من ألحانها الشجية سحراً حلالاً».

**من أي أقطارها أتيت رأيت الحسن حيران في جوانبها**

وحاول أن تأتي بغداد من أية جهة، وسوف تجد جمالاً وكمالاً وإرثاً عريقاً تخربه الحرائق أمام أبصار العالم دون أن تتحرك نخوة الدفاع عن الأصالة التاريخية في نفوس من يزعمون حب بلد الرشيد وتاريخه الذي منه رضعوا وإليه يعودون هادمين.

إن الفلوجة حيث ضربت الطائرات الأميركية موكب السفير الروسي أثناء غزو العراق آية أخرى من عراقة ذلك التاريخ، فهي ذاتها التي أقام فيها أبو العباس السفاح قبل أن بنى المنصور بغداد،

وكانت تعرف باسم الأنبار، وتشارك بغداد انتظار الغزاة والطغاة على مفارق التاريخ البعيد والقريب.

لقد كرزت على دجلة الخير أجيال وأجيال، وشهدت الحفاة يأتونها فينتعلون، والغلاظ الشداد البداة يقيمون فيها فتتغير طباعهم ولغتهم ويرقّون، فقد جاء علي بن الجهم فيها إلى المتوكل ووصفه جادا بالكلب والتيس:

**أنت كالكلب في حفاظك للود  وكالتيس في قراع الخطوب**

فلما طاب له المقام في بغداد وسمع ونظر، وتغزل وتشرب حضارة وماء سلسبيلاً وحسناً جادت قريحته بذاك البيت العجيب على الجسر الفاصل بين الرصافة والكرخ:

**عيون المها بين الرصافة والجسر**
**جلبن الهوى من حيث تدري ولا تدري**

ويحدثك سكارى شارع السعدون عن رياح مدينتهم وكأنهم بحارة محترفون. ويقال إن البغداديين كأهل البصرة لا يحبون الرياح الآتية من الجنوب:

**نحن في بصرتنا الفيحاء في عيش ظريف**
**فإذا هبت شمال بين جنات وريف**
**وإذا هبت جنوب فكأنا في كنيف**

وقد لا يكون البغداديون من رأي الشاعر البصري بالكامل في عيش ظريف في أي مكان بغض النظر عن اتجاه الرياح إن لم

يكن الإنسان حراً، ومشكلة البصري والبغدادي. بل وكل عراقي، أن المتنازعين على استعباده كثر، وقد احتار من يقاوم أولاً. القامع المحلي أم الغازي الخارجي، ورغم حيرته ما زال يقاوم تاركاً ترتيب الأولويات للفارغين والمتكئين على الأرائك متفذلكين.

البغداديون من أيام البرامكة إلى أيام التكارتة بين نارين، وعدوين، واحتمالين، وموتين، والريح التي كانت تحمل لزهور دجلة غبار الطلع ما عادت تتحرك بجنوبيها وشرقيها وشماليها بغير دخان الحراق لمدينة منذورة منذ اللص والراهب للدم والنار.

لقد حصل لمواطن بغداد في أيام التكارتة عين ما حصل لمحلة الخلد أيام البرامكة. فقد بدأت بقصر المنصور داراً للملوك والخلفاء، ثم أخذت تتراجع إلى أن صارت للمعدمين والعيارين، كما يخبرنا أبو حيان في كتاب «مثالب الوزيرين». ورغم الفقر والتعاسة والتراجع كانت تلك المحلة أفضل من قاوم حين وصلتها جحافل هولاكو -أيضاً- في صفر.

لك الله يا بغداد يا أم الخلد والقرار، والنهاوند والجوري والبيات ودجلة والفرات، يا من أدمنت الحب والحرب. أما شبعت أن تكوني محط أنظار العالم...؟ أما في الدنيا خيار ثالث بين الطغاة والغزاة...؟

# (16)

# بصرة الشعر والنخيل

لم يحدق العرب جيداً بالبصرة إلا وقنابل الغزو تقصفها، وحق لهم أن يتفرجوا على بصرة الشعر والنخيل، قبل أن يغيض القصيد، ويصبح نخيل البصرة كالتضامن العربي، كلمة في الكتب والإذاعات والجرائد، ولا تعود له في الأرض أي جذور.

هناك وعلى تلك الضفاف نشأ النحو العربي، وعاش أبو الأسود الدؤلي يعد النجوم، ويتعلم عشق الكلام العذب، وينسج الأصول ليسلم الرايات التي ضبطت قواعد اللسان إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، لينقلها بدوره إلى سيبويه الذي أودعها جميعاً في كتاب مازال العمدة في وجه العجمة والوسادة العراقية لمن يدافعون في آخر الخنادق عما تبقى من هذه الأمة، وهو اللسان.

البصرة أيضاً دار الجاحظ، وفيها كان يكتري دكاكين الوراقين ليلاً ليقرأ والناس نيام، ومرابع الشباب والصبا لأبي نواس الفلتة الأكثر تألقاً في الشعر العربي. والبصرة مدرسة الاعتزال الأولى التي أحكمت ربط العقل العربي المشتت ووضعت القواعد

الأولى لأرقى مدرسة عربية في الفكر السياسي القديم، وغير هؤلاء عشرات العبقريات التي أنتجتها عبقرية تلك المدينة.

البصرة عطشى، والكوفة ملتهبة، وعلى استحياء يتردد في الأنباء أثناء غزو العراق اسم محافظة «ذي قار» فهل تذكرون ما يعنيه ذلك الاسم؟

«ذي قار» أول معركة في التاريخ ينتصر فيها العرب على قوة أجنبية حين اتحدوا، ففي تلك الأصقاع التي تسرح فيها دبابات المارينز اتفقت القبائل العربية أن تدافع عن وجودها في وجه الإمبراطورية الكبرى –آنذاك– إمبراطورية كسرى أنوشروان، ونجح التضامن في هزيمة الغزو الخارجي، فصارت «ذي قار» مفخرة الأجيال العربية ومقبرة الغزاة في مختلف العصور، وكوة يطل منها في زمن الظلمات النور.

عن تلك الموقعة التي أثبتت ملحمة ذي قار منذ ذلك التاريخ السحيق أن الغزو الخارجي لا يوقفه غير التضامن قال العديل العجلي:

**ما أوقد الناس من نار لمكرمة**

**إلا اصطلينا وكنا موقدي النار**

**وما يعدون من يـوم سمـعت به**

**للناس أفضل من يوم بذي قار**

**جئنا بأسلابهم والخيل عابسة**

**لما استلبنا لكسـرى كل أسوار**

يوم ذي قار صار شرفاً دينياً وسياسياً. فرسول الإسلام عده أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وأضاف (صلى الله عليه وسلم):

«... وبي نصروا». والقبائل التي شاركت فيه وما كانت أقل تشرذماً من الدول التي صارت تتشرف بالمشاركة في يوم التضامن على أرض العراق حتى غدا ذلك اليوم مظلة الشرعية وعنوان الشرف للقبائل جميعها كما يفهم من أبيات لأعشى قيس:

**أما تميم فقد ذاقت عداوتنا**

**وقيس عيلان مس الخزي والأسف**

**وجند كسرى غداة الحنو صبحهم**

**منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا**

**لو أن كل معد كان شاركنا**

**في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف**

ما لنا تركنا البصرة، وقفزنا إلى ذي قار، أهو ذلك التوق العربي الأبدي إلى تضامن يأبى أن يعود؟ أم نريد لعجزنا المشاركة في التعتيم على ما يجري في عصر لا عتم فيه إلا ظلام النفوس؟ أما ما تبقى فكله تحت رصد الأقمار الاصطناعية وأمام عيون كاميرات لا تمل من نقل مشاهد عن آخر دورة خراب في مدينة صار خرابها مثلاً، وأصعب ما في حالتها على الدوام أن الذين يحلبونها وقت السلم يتخلون عنها ويتركونها لأقدارها، فحجّاجها المعاصر لم يكن أرحم من حجاجها التاريخي ولا من الغزاة في سفك دماء بنيها.

والبصرة ليس عندها عقدة الخوف من الغرباء والأجانب، فهي أقدم مدينة «كوزمبوليتانية» في المنطقة ترحب بكل الأجناس والألوان، بشرط ألا يأتوا على ظهر الدبابات ولا بالبوارج الحربية، فهي مدينة منذورة للعقل والانفتاح، ولم تمارس الانغلاق طول تاريخها، وهذا سر تميزها، وسر الحقد الدائم عليها من حكامها وغزاتها.

لقد قال «خودا بخش» في تعليقاته على «كريمر» حول الحضارة الإسلامية مفسراً انفتاح المعتزلة العمود الفكري والسياسي للمدينة -وللدولة العباسية كلها- «كان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية، وصبغها صبغة إسلامية، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم».

ويجمع كل من درس البصرة من قدماء ومحدثين أن شخصيتها العقلية علمية فلسفية، لذا تركت شؤون التراث القديم والمدح والهجاء للكوفة، وتفرغت للتفاعل الثقافي الخلاق والخصب مع كل الأجناس التي جاورتها أو آتتها متاجرة، ورغبة في النهل من معينها الحضاري.

وحين يتحدثون عن انتفاضة البصرة يقفز إلى الذهن شريط طويل من الانتفاضات، فالبصرة منتفضة على الدوام، ثار بها الزط ثم الزنج ثم القرامطة، وما بين تلك الانتفاضات والانتفاضة المعاصرة لزمننا ما لا يقل عن 461 انتفاضة كبرى، ناهيك عن الانتفاضات الصغيرة التي تتحول في أزمنة الغزو والشقاق إلى تقليد يومي تمارسه مدينة رومانسية قلقة قدرها أن تعيش بين البحر والصحراء، وبين مطرقة الغزاة الكبار وسندان المستبدين المحليين الصغار الذين أشعلوها وجعلوا يتدفأون على نارها ويتظاهرون بحبها.

ودوماً تبايع البصرة الثائرين في أزقتها إلى أن يحضر شبح الحرب، وعندها تفكر بعمق، فمدينة العقل العربي الأولى تراجعت مرات كثيرة من مبايعات عديدة ومنها مبايعة يزيد بن الملهب الذي هرب من سجنه وعاد إليها، ففرحت به القبائل المتململة من عدي بن ارطأة الفزاري، وما أن غاب عنها قليلاً ليوطد نفوذه عند جارتها

وخصيمتها الدائمة الكوفة حتى انفض عنه المنتفضون فقال فيه الشاعر:

**كل القبائل بايعوك على الذي**

**تدعو إليه طائعين وساروا**

**حتى إذا حضر الوغى وجعلتهم**

**نصب الأسئلة أسلموك وطاروا**

ولا نعرف متى يسلمون «أبو حجاج»، ففي ساحة الوغى يلعب كل الطغاة على فكرة الوطن حتى يقنعوا الناس بأن الهجوم عليهم هجوم عليه، لكن الحجاج المعاصر يعرف، وهم يعرفون، أن القلوب نائمة على ما فيها من مشاعر دامية.

لقد قال الحجاج التاريخي ذات يوم لأهل الكوفة:

«إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعدواتكم، ولا المستريح إلى مودتكم».

أما خطبه في البصرة فكانت دوماً أهدأ وأكثر تركيزاً وأقل غضباً من خطبة «ابن جلي» وخطبة دير الجماجم التي حفظها كاملة صاحب كتاب «نهاية الأرب»، وما ترك فيها الحجاج شتيمة لم يطلقها في حق المنتفضين والثائرين عليه من الأمصار العراقية «إن الشيطان قد استنبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ، والأصماخ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً،

اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟».

وطبعاً لم يسأل حجاج نفسه لماذا صار العراقيون هكذا، ولم يتساءل إن كانت سياساته الدموية هي السبب في شقاق الناس ونفاقهم أمامه وخوفاً من أجهزته وعسسه. أما مع الوطن فالأمور تختلف، لأن الناس تتشربه صافياً من الفراتين، ومن عذوق النخيل.

وقد كان انتقام العراقيين من الحجاج رهيباً، وهذا موقفهم من كل من يضطهدهم، مستبداً كان أم غازياً. ولما لم يكن السلاح بأيديهم فقد اعملوا في ألسنتهم وأقلامهم حتى تحول إلى أقبح نموذج في التراث العربي، فقد زعموا أنه ولد مشوهاً لا دبر له، فثقب له دبر، وهذه أول عملية عربية جراحية ناجحة إن صدقت الرواية. وزعموا أنه رفض ثدي أمه إلى أن تمثل الشيطان لأهله، وأوصاهم أن يذبحوا جدياً أسود، وتيساً أسود، وثعباناً أسود، ثم يخلطوا الدم ويرشونه على ثدي الأم، فيرضع منه الحجاج السفاح. والغريب أن العراقيين المعاصرين يقولون كلاماً مشابهاً عن حجّاجهم الحالي.

وكم في بلادنا من «حجاجيح، وجحاجيح» لا يذكرهم أحد بشر إلى أن يموتوا أو يفقدوا السلطة، وعندها تُبرى الأقلام، وتسن الحراب للانقضاض على من كان بالأمس الحاكم النحرير، والبدر المنير وصاحب كل إنجاز خطير، والمشكلة أنهم كلهم يمضون ويظل خراب البصرة بعدهم آماداً مديدة.

ومع تلطف الحجاج -نسبياً- بالبصرة، فإن أقسى أنواع الهجاء جاءه منها وعن طريق شاعرها الخارجي عمران بن حطان في قصيدة

نتذكرها جميعاً كلما رأينا الأسود المتشاطرين علينا يتحولون إلى نعامات أمام الآخرين. فعمران البصري هو صائغ ذلك البيت الذي احتفت به الذاكرة العربية أكثر من غيره، وذلك في القصيدة التي يعيّر فيها الحجاج بهربه أمام غزالة الحرورية حين ترك نعليه في ساحة المعركة وأسرع إلى الكوفة يتحصن داخل قصره:

**أسد علي وفي الحـروب نعـامة**

**ربداء تجفل من صفير الصافر**

**هلا برزت إلى غزالة في الوغى**

**بل كان قلبك في جـناحي طائر**

وكان الحجاج قد طلب ابن حطانٍ وغيره من الذين رفضوا الظلم، فاتهموه بإثارة الفتن، وهؤلاء دوماً يدفعون ثمن أزمنة التلبك والحيرة والقلق واختلاط الأوراق، ويكونون أهدافاً ثابتة للمستبدين المحليين، وللأعداء الخارجيين على السواء.

إن الورطة الحقيقية أيام القلاقل والمشاكل والاضطرابات والفتن أن الناس تختلط عليهم الأمور، وتتضارب في رأسهم الأفكار، وتصطحب المشاعر، فليسوا كلهم مثل أبي العتاهية في الوضوح:

**الباطل المحض معروف برؤيته**

**والحق يعرف بالأمثال والعبر**

وهذا الشاعر الزاهد بالحروب والفتن هو القائل أيضاً:

**ألا إن اليقـين علـيه نور**

**وإن الشك ليس عليه نور**

والبصرة المحرومة من النور، والمنذورة للنار، مدينة لا تحب اليقينيات، فقد عاشت على الشك والقياس، وولدت من الأول مذهباً فكرياً، ومن الثاني مذهباً نحوياً، وحملت نخبها منذ ذلك الزمن السحيق لقب «أهل المنطق» والمناطقة، قوم يصعب أقناعهم كما يصعب عليهم أن يتركوا المشاكل دون حل عملاً بقول الناصح:

**خذ من يقينك ما تجلو الظنون به**
**وإن بـدا لك أمـر مشـكـل فـدع**

بقي أن نذكر أن المثل يضرب لخراب البصرة لا يخص بصرة العراق إنما بصرة أخرى في شمال أفريقيا خربت واختفت من التاريخ عكس بصرة الشعر والنخيل التي تولد دوماً من رماد خرابها.

# (17)

# نفحات من القدس العتيقة

حين فتح الناصر صلاح الدين حلب الشهباء مدحه قاضي دمشق بن الزكي بقصيدة حملت أمنية متعلقة بالقدس فقال:

**وفتحكم حلباً بالسيف في صفر**

**مبـشر بفتـوح القدس في رجب**

وحصل ما قال الشاعر، فقد دخل صلاح الدين القدس في الأسبوع الأخير من رجب. وفي أواخر رجب على أيامنا فتح بوش القدس من مكتبه في واشنطن وحولها إلى عاصمة أبدية لإسرائيل بقرار رئاسي. فتأمل وتململ، أو اغضب إلى أن يتحول غضبك إلى نار تحرق ذلك القرار لكن لا تيأس، فالقدس كالأيام يداولها الله بين الناس، وتاريخها لمن يتأمله لا يثبت على حال، وذاك قدرها، وقبل أن تظن أن المعركة حسمت تذكر أن تلك المدينة التي دخلها صلاح الدين في رجب بقيت خارج السيطرة لأكثر من تسعين عاماً، وتحولت صخرتها وقبتها إلى اسطبل لخيول الغزاة، لذا كانت أول مهمة لصلاح الدين أن يزيل روث الخيل من صحن المسجد الأقصى، وهي ذات

المهمة التي قام بها الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب حين جاء لتسلمها بعد مراسلات بين أهلها وأبي عبيدة قائد جيوش عمر.

وفي تلك الأثناء كان اسمها «إيلياء». لكن قبل أن نذهب إلى أسمائها وصفاتها، والاثنان وفيران وغزيران، دعنا نجلو حكاية الخيل والاسطبلات، فالصهاينة يروجون منذ عشرات السنين لاكتشافهم لاسطبل خيل الملك داوود والد سليمان، والاسطبل موجود تحت المسجد وهو اسطبل داوود فعلاً، لكن ليس داوود الملك، إنما داوود السلطان الأيوبي ابن شقيق صلاح الدين الذي تولى الحكم بعد الملك الكامل باسم الناصر داوود، وهو ابن عيسى المعظم وحفيد العادل، والذي نظم الاستعادة الأيوبية الثانية للقدس سنة 637 للهجرة، بعد أن عادت إليها بعض جحافل الصليبيين الذين نقضوا عهد صلاح الدين.

وما اسطبلات داوود الكذبة الوحيدة، فمنذ أن بدأت الحفريات في القدس في القرن التاسع عشر، والصهاينة يحاولون إيجاد أي دليل يربط مكان الأقصى بهيكلهم الثاني الذي أقاموه بعد السبي البابلي على أنقاض الهيكل الأول كما يقولون.

والمحاولات على ذاك الصعيد عديدة، وآخرها حملة 1968 للحفريات التي ترأسها بنيامين مازار، ومئير بن دوف، وبدلاً من أن يجدوا أحجار الهيكل وجدوا ثلاثة قصور أموية، وسبيل السلطان قايتباي، وآثاراً رومانية، لكنهم أصروا في المضي بالكذبة إلى نهايتها، وزعموا أنهم وجدوا مدخل الهيكل، وهذا ما كذبه كل علماء الحفريات الذين شاهدوا الأدلة البائسة لتلك الحملة الآركيولوجية التي حددت موجوداتها قبل أن تبدأ الحفريات، فالصراع على القدس للإسرائيليين

مسألة موت أو حياة، لأنها المدينة التي أسسها داوود ملك العبرانيين وكفى بذلك شهادة على ملكيتهم لها، لكن هل يؤيد التاريخ ذلك؟

المؤرخون من أهل الثقة، والذين لا يعترفون بغير أدلة الحجر، ويرفضون كتابة التاريخ على أساس التلمود والتوراة المحرفة، يعيدون بناء القدس إلى «ملكي صادق» زعيم اليبوسيين، وهناك من يجعل الباني «إيلياء» أحد أحفاد سام بن نوح، وعلى هذا الرأي ياقوت صاحب معجم البلدان، وهو الذي يسود في التاريخ الإسلامي. لأن أبا عبيدة راسل أهل إيلياء، ثم أعطاهم عمر الذمة والعهد بعد أن نظف مكان الصخرة، واختط القبة التي سيكملها لاحقاً عبد الملك بن مروان.

وإن لم تشأ الاعتماد على هؤلاء بوصفهم أصحاب مصلحة، فآراء غيرهم لا تبتعد كثيراً عن تفسيراتهم، والأغلبية على القدس وضواحيها كانت لليبوسيين ثم للكنعانيين. واليبوسيون من العرب الأوائل، وقد ظلوا يحكمون القدس، كما أثبتت وثائق تل العمارنة، إلى قرابة النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد. وبعدهم بأكثر من خمسة قرون سيبدأ الطور العبراني على يد داوود قبل ألف عام تقريباً من ميلاد المسيح عليه السلام.

ولو استطاع العبرانيون أن يلغوا اليبوسيين والكنعانيين من التاريخ لفعلوا، فأولئك القوم يقفون شوكة في حلوقهم لأنهم ينسفون النظرية الصهيونية من أساسها، فتاريخ العبرانيين في القدس لا يبدأ إلا بعد ألف وثلاثمائة عام على إنشائها على أكتاف اليبوسيين ملكي صادق وحفيده إيلياء.

ومن سوء حظ الصهاينة أيضاً على صعيد التاريخ أن اسم «فلستيا»، أي فلسطين الحالية، يظهر في الوثائق قبل سليمان وداوود بأربعمائة عام على الأقل، فإن لم يكن لليبوسيين أحفادهم الذين يطالبون بحق الأجداد، فإن الفلسطينيين لم يسقطوا مطالباتهم ومعهم الحق التاريخي والشرعية الدولية التي تعيش أوائل القرن الحالي أسوأ ظروفها، وإلا لما تجرأ بوش الثاني على تحدي مشاعر العالم بذلك الأسلوب الصفيق الذي يكرس مدينة محتلة عاصمة لمغتصبيها.

ولعل من أصدق الصفات التي أعطيت للقدس تلك التي ترد في كتاب «لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل» لمصطفى أسعد اللقيمي من رجال القرن السادس عشر الذي قال نقلاً عن غيره: «وأما ما يقال إن بيت المقدس طشت من ذهب مملوء عقارب، وإنه كأجمة الأسد، فداخله إما أن يسلم أو يدركه العطب، فمحمول ذلك على زمن بني إسرائيل». والظاهر أن عقارب ذلك الطشت الذهبي لا تعمل إلا حين تكون تلك المدينة تحت السيطرة الصهيونية، فأهل الإدارة الأميركية –إذا صدقناهم– يزعمون أن القرار دبر بليل، وكل تاريخ القدس كان يحاك في الظلام، باستثناء أيام البناء والعمران، وهذه في عمر تلك المدينة نسبتها ضئيلة جداً قياساً بأيام الخراب والفتن. وكل النبوءات ومعظم الأقوال تشير إلى كثرة فتن تلك المدينة التي يتزاحم عليها المسلمون واليهود والنصارى. وفي مأثورات الشيعة أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال لصعصمة بن صدحان إن سكنى القدس من أفضل ما يمكن عند وقوع الفتن «نعم المسكن عند ظهور الفتن بيت المقدس»، والمغزى واضح، وهو أنها أرض

رباط وجهاد، وهذا ما نسمعه من الرئيس الفلسطيني كلما أخرجوه من حصار لحصار، فهو يستغل كل هدنة بين حصارين ليذكر بتلك المعاني، وبأن الراية الفلسطينية سترتفع على أسوار القدس، وهذا ما يجعله يبدو طوباوياً في نظر كثيرين، لكن من يعرف تاريخ تلك المدينة يدرك حصافة ذلك الرأي وقابليته للتطبيق ولو بعد حين.

ومن سوء حظ جيلنا أنه لم يعرفها بسبب الصراع الصهيوني الذي يمنع زيارتها، والظاهر أن المنع سيطول ما دامت السياسة الأميركية اعترفت بها عاصمة للكيان الصهيوني.

ولأن في العالم العربي من لا يزال يصدق بخرافة التحفظات الرئاسية حول قرار القدس، فلا بأس أن نشير إلى أمثلة من التراث الأميركي القريب والبعيد تؤكد التوحيد في الأهداف بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ومع أن هذه المسألة صارت من البديهيات، إلا أن هناك من لا يزال يجادل بصحتها لأسباب تكشف نواياه.

واترك بوش الثاني، واذهب إلى كيندي، وسوف تجد بين تصريحاته ذلك التصريح الشهير «إن يهوه هو الذي يحمي أميركا وليس الجيوش والأساطيل».

وإن لم تشأ الوقوف عند كيندي لأنه من التاريخ القريب، فاذهب إلى عهد التأسيس حين كانت الولايات المتحدة 13 فقط وليس 54، وهناك ستجد نجمة داوود على الختم الرسمي الأول للولايات المتحدة، والذي ما يزال مستخدماً. ففي ذلك الختم 13 نجمة صغيرة تم ترتيبها في دائرة فوق رأس النسر على شكل النجمة السداسية التي تعرف باسم «ميجن داوود» وباسم «خاتم سليمان». وكل من أراد الاستفادة

والتعمق في جذور ذلك الحلف المريب بين الختم الأميركي والنجمة مقارنة من أسفار العهد القديم في كتاب شفيق مقار العميق «بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط».

وقد أتى على البيت الأبيض حين من الدهر كان فيه رؤساء يحترمون السياسة الرسمية للدولة، ولا يسمحون بتسخيرها للأهداف الصهيونية، ومن هؤلاء جيمس مونرو صاحب المبدأ المعروف باسمه الذي خرب أميركا اللاتينية، وحكم بعد ماديسون سنة 1817 وكان سلفه قد أطلق العنان للحلم الصهيوني بتعيين موردخاي نوح قنصلا أميركياً في تونس ليرعى من هناك الخطوات الأولى، ويزرع البذور الصهيونية في العالم العربي. وبمجرد أن سمع مونرو بما يفعله القنصل الأميركي اليهودي في تونس أقاله برسالة جافة جاء فيها: «لم يكن من المتوقع حين عيناك قنصلاً في تونس أن تعوق ديانتك حسن قيامك بواجباتك القنصلية. غير أن معلوماتنا الموثوقة تشير إلى عكس ذلك، لذا غدا من غير المرغوب فيه إبقاؤك في منصبك، وبناء عليه بات من الضروري إلغاء تعيينك، فاعتبر نفسك مقالاً من تاريخ تسلم هذه الرسالة».

وذاك زمان ولى، فالرؤساء الأميركيون هم الذين يطلبون بركات القناصل والسفراء من أصول يهودية، بل ويتبرعون في المزاودة عليهم في التعصب للصهيونية، وما التحفظات إلا ورقة خارج القانون الأساسي الذي تم توقيعه وانتهى الأمر، لكن الصراع لم ينتهِ، ولن ينتهي في القريب المنظور، فالقدس معتادة على هذه الأزمات، وهي ليست مسؤولية العالم الإسلامي وحده، بل المسيحي أيضاً، فهناك

كنيسة «القيامة» وكنيسة «مريم»، وكنيسة «المصلبة» وعشرات الأديرة والمزارات المسيحية التي لن تكون في مأمن أبداً تحت إدارة الصهاينة المتعصبين.

وإذا كان هناك من لا يزال يبحث عن التسامح الديني في مدينة الأديان الثلاثة، فهذا وقت نتذكر فيه «العهدة العمرية» لأهل القدس «إيلياء»، ولنتذكر أن عمر حين أعطى ذلك العهد كان قائد القوة العظمى الوحيدة على سطح الكرة الأرضية في ذلك الزمان، وذاك لم يدفعه إلى الغطرسة وسفك الدماء، بل إلى حقنها وحفظ حقوق الجميع مهما كانت ديانتهم. فهو القائل في أمان لأهل القدس: «هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين عمر أهل إيلياء (القدس) من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقض منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا شيء من اموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار احد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود...».

ولعل الصهاينة يقولون بالكثير من التشفي كما قال اللنبي لصلاح الدين «ها قد عدنا يا صلاح الدين»، وهم على حق إلى حين، فبيت المقدس طشت ذهب مسكون بالعقارب، ولكل عقرب لسعة سرعان ما يزول سمّها لتعود مدينة الأقصى وكنيسة مريم منارة روحية للبشرية، ومقراً لكافة الاديان التي تقبل بالتعايش مع الآخرين.

# (18)

# مدن الأوهام والمخيلة

لكل كائن أحلام مؤجلة، ومدينة وامرأة في المخيلة، وإن كان لابد من تأنيث التمني، فرجل ومدينة ومساحات لا تحد من الوهم الجميل الذي لولاه لأقحلنا كما حدث للربع الخالي الذي كان جنة تين وأعناب وزيتون، وصار حين فقد وهمه بحراً من الرمل الأنيق يذكرك بالتيه الذي لابد منه قبل عبور الحقيقة أو بعدها.

ولعله الوهم الجميل ذاته هو الذي جعل الرحالة والجغرافيين يطلقون على كتبهم صفة العجائب والغرائب، وأحياناً يضيفون عجائب الزمان إلى غرائب البلدان ليكتمل القوس وتقفل انفراجاتها الدوائر، والأرواح والزوايا.

مدن تضحك، وأخرى تبكي، ولا تدري هذه ولا تلك ما يضحكها، ولا ما يبكي جاراتها وخلانها.

بداية أساطير المدن الضاحكة في التراث العربي جاءت من الأندلس وبالتحديد من أبي حامد الغرناطي أستاذ القزويني، وصاحب كتاب «تحفة الألباب»، وهو يزعم على الحقيقة والتوهم، ويكاد ينفرد بخبر عجيب عن وجود مدينة اسمها مدينة النحاس بنتها الجن لنبي

الله سليمان بالقرب من بحر الظلمات (المحييط الأطلسي) وقد بلغ خبر هذه المدينة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، فكتب إلى واليه في المغرب أن يعاين المدينة النحاسية ويوافيه على وجه السرعة بما فيها من العجائب، وكان الوالي -آنذاك- موسى بن نصير الذي أوقف الفتح، وجمع عسكره، وسار بهم أربعين يوماً. وصدق أو لا تصدق، فإنه وجد المدينة، لكنها كانت ككل مدن المخيلة دون بوابة، فأمر بحفر السور دون جدوى، ثم اخترع سلماً لعله الأطول بين سلالم الفاتحين، وطلب من بعض رجاله أن يتسوروها، ففعلوا فكان الواحد منهم يصل إلى أعلى السور فيغرق في الضحك ثم يصفق ويهوى على الجانب الآخر دون أن يدركوا له أثراً، لكنهم كانوا يسمعون أصواتاً تهلل له من داخل أسوار المدينة.

وتكررت حالة الضحك والتصفيق والقفز إلى الهلاك حتى احتار موسى بن نصير، وأوشك على الرجوع، لكنه خاف غضب الخليفة، ولنترك الغرناطي يقص علينا بأسلوبه حكاية اليوم الأخير من تواجد فاتح الأندلس عند أسوار مدينة الضحك النحاسية.

«... وتمادت الأصوات من داخل المدينة ثلاثة أيام ولياليها، ثم سكنت فقال موسى بن نصير: أنذهب من ها هنا ولم نعلم بشيء من علم هذه المدينة، وبماذا أكتب وأجاوب أمير المؤمنين. وقال لرجاله من صعد أعطيته ديتين، فانتدب رجل من الشجعان وقال أنا أصعد، فشدوا في وسطي حبلاً قوياً، وأمسكوا طرفه معكم حتى إذا أردت أن ألقي نفسي إلى المدينة فامنعوني، ففعلوا ذلك وصعد الرجل، فما أشرف على المدينة ضحك، وألقى نفسه، فجروه بذلك الحبل،

والرجل يجر من داخل المدينة حتى انقطع جسده إلى نصفين، وقع نصفه من محزمه مع فخذيه وساقيه وذهب النصف الآخر إلى داخل المدينة، وكثر الصياح والضجيج، حينئذ أيس الأمير موسى أن يعلم شيئاً من خبر المدينة، وقال ربما يكون في المدينة جن يأخذون كل من طلع على سورها».

ومن مدن الجن إلى مدن الانس، يكاد الجغرافيون العرب يجمعون على «التيبت» من البلاد الضاحكة، ولو شاهدوا ما حل بها وما جرى للدالاي لاما لبكوا وأبكو، وصنعوا ما يصنعه شعراء المقدمات الطليلة، حيث لا يحلو للشاعر الإنشاد إلا إذا بكى واستبكى. لماذا يا عبدالله...؟ أعلى اثفية وبعر آرام تنوح...؟

وفي الدنيا مدن باسمة، ونساء ضاحكات، وأنهار راقصة، وبحار يكاد موجها من البهجة المغسولة بالنشوة ينافس النوارس في التحليق للأعالي لتبلغ كل موجه قمة همالايا دون أن تتحرك من رملها وحصاها.

ويجمع على طبيعة التيبت المرحة كل من ابن خرداذبة في «المسالك والممالك»، فكل من دخلها حسب اعتقاده «يظل ضاحكاً مسروراً إلى أن يخرج منها». وكذلك المسعودي صاحب مروج الذهب الذي يبالغ قليلاً –على عادته في الحماسة– فيؤكد «أن من يدخل تلك الأراضي لا يتعرض أبداً للأحزان». أما النص الأكمل والشبيه جزئياً بنص المسعودي عن التيبت، فتجده عند ياقوت الذي يفيض ويبالغ في أخبار مدن الصين والهند في كتابه معجم البلدان الذي يقول فيه عن مرح التيبت:

«وفي بلاد التيبت خواص في هوائها، ومائها وسهلها وجبلها لا يزال الإنسان بها ضاحكاً مستبشراً لا تعرض له الأحزان والأخطار والهموم والغموم. يتساوى في ذلك شيوخهم وكهولهم وشبانهم، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وأنهارها، وهو بلد تقوى فيه طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، وفي أهله رقة الطبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي وأنواع الرقص. حتى أن الميت إذا مات لا يداخل أهله كثير من الحزن كما يلحق غيرهم، ولهم تحنن على بعضهم البعض، والتبسم فيها عام حتى إنه ليظهر في وجوه بهائمهم...».

إذاً البقرة الضاحكة لم تظهر في فرنسا، ولا في الهند أولاً، إنما في بلاد التيبت، ومن هناك انحدرت إلى سهول الهنود، وظلت تضحك إلى أن نالت القداسة عندهم، ومن ذا الذي لا يقدس الروح الصافية المرحة...!!؟

ترى هل المرح عادة في الطبيعة الجبلية يغذيه الهواء النقي، والسماء القريبة والغيوم التي تهبط على أكتاف الناس كما يهبط الحمام واليمام على الأكف في «ترافلغارسكوير...؟».

لو صدقنا ذلك، فيجب أن نسحب صفة المرح على أهل الأطلس الكبير الذي كان جزءاً أساسياً من أسطورة هرقل، وعلى الجبال الجزائرية الشاهقة التي تبلغ أقصى ارتفاعها عند بجاية حيث تعيش القرود في أحضان البشر، وقد زرت تلك البلاد فلا رأيت بسمة ولا ضحكة ولا قهقهة، ولا عبرت بمن يهم بفتح شفتيه نصف فتحة تعبيراً عن الرضا. حتى خيل إلي أن تلك البلاد لم يضحك فيها أحد منذ أيام

الطوفان، فقد كان من الممكن أن يهبط قارب نوح «ذا آرك» فوق تلك الجبال الشاهقة لكنه فضل عليها جبال «آرارات» على الحدود السورية – التركية، حيث هناك أيضاً لا يضحك الناس إلا بالمناسبات، ولماذا يضحكون؟ وعلى ماذا...؟ وكل ما حولهم يقول: غطيني يا صفية.

ولأن كل ابتسامة تقابلها دمعة في الميزان –بالإذن من جبران– ارتبط فرح نوح (عليه السلام) بعد انتهاء الطوفان بالعبودية، ولذلك حكاية يرويها ابن قتيبة في كتاب «المعارف»، حيث يزعم نقلاً عمن سبقه أن نوحاً بعد أن أرست سفينته غرس كرماً وعصر من ثمره شراباً، فلما انتشى وحصل له ما يحصل لمتعاطي ابنة العنب تعرى ونام، فأبصره على تلك الحال ابنه حام أبو كنعان، وبدلاً من أن يغطي عورة أبيه ذهب وأطلع أخويه سام ويافث على الوضع. يقول ابن قتيبة في بقية الحكاية:

«فأخذ سام ويافث رداءً فألقياه على عواتقهما، ومشيا على أعقابهما فواريا عورة أبيهما، وهما مدبران، فاستيقظ نوح من نشوته، وعلم ما فعل ابنه الأصغر فقال: ملعون أبو كنعان عبد عبيد يكون لأخويه، وقال: مبارك سام يكثر الله أولاد يافث، ويكون أبو كنعان عبداً لهما».

وفي رواية أخرى «يكون حام وذريته عبيداً لهم». ومهما كانت الرواية فإن الرقيق لم يقتصر على أولاد حام الأسود، لا في المدن الضاحكة، ولا في المدن الباكية، فالعرب في أوج حضارتهم كانوا يفاخرون بالرقيق الرومي الأبيض، وفي «عمليات الوطء» ما كانوا يفرقون بين أسود وأبيض. لكنهم، ولأمر يصعب تفسيره، خصوا السود

بالخصي، وأوقفوهم على الأبواب لحراسة النسوان، وكأن الأبيض يظل فيه ما يغري حتى وإن أخصيته. ويرجع الحديث إلى سياقه عن المدن وعجائبها، فأبو يحيى القزويني يحدثنا في كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد» عن مدن مليئة بالعجائب والمصائب ومنها مدينة هندية يفقد فيها الرجل فحولته إلى حين. فهي بلغة زكريا القزويني «إذا دخلها غريب لم يقدر على المجامعة أصلاً، ولو أقام بها ما أقام، فإذا خرج منها زال عنه المانع».

ويحدثنا هذا المؤلف المكبوت المولع بالعجائب الكابتة عن مدينة أخرى أو بالأحرى جزيرة مسكونة بالنساء وحدهن، ولعلها الصدى البعيد لأسطورة الأمازونيات، لكن موقعها ليس في بلاد الأمازون إنما في بحر المغرب، الأمر الذي يبيح لنا أن نفترض أنهن إما عربيات أو بربريات، وليبرئ ذمته من هكذا عجيبة مغربية ينسبها إلى الطرطوشي الذي سمع منه عن جزيرة «أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيول، ويباشرن الحرب بأنفسهن، ولهن بأس شديد عند اللقاء، ولهن مماليك يختلف كل مملوك بالليل إلى سيدته، ويكون معها طوال ليلته، ويقوم بالسحر، ويخرج مستتراً عند انبلاج الفجر، فإذا وضعت إحداهن ذكراً قتلته في الحال. وإن وضعت أنثى تركتها».

وحتى يزول من نفسك أي شيء حول هؤلاء الأمازونيات العربيات والبربريات اللواتي ينافسن أخبار مثيلاتهن بين عجائب وغرائب مدن المخيلة، يضيف القزويني لروايته تأكيد الراوي:

«قال الطرطوشي: مدينة النساء يقين لا شك فيها».

ومن جزيرة النساء بالمغرب إلى «قرية الشبقات» قرب الموصل يواصل القزويني صاحب المخيلة المكبوتة القص. لكنه ينسب الحدث هذه المرة لمتصوف اسمه عمر التسليمي ليخفف من وقع الإثارة. يقول الشيخ عمر: «وصلت إلى هذه القرية –اسمها باشاي من أعمال الموصل– فلما كان وقت خروج نور –زهر– الغبيراء اهتاج بنسائها شهوة الوقاع لا يستحين من ذلك لغلبة الشهوة، ولا قدرة للرجال على قضاء أوطارهن، فعند ذلك أخرجن إلى واد بقرب الضيعة، وهن بها كالسنانير عند هيجانها إلى أن انقضت مدتهن، ثم تراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز».

وقد يكون أو لا يكون لهذه المدن والقرى وجود، فبعضها من صنع المخيلة، وبعضها من نتاج التوهم، ومعظمها يوجد على غير الصورة التي تحسنها الرغبات الخبيثة التي تلون كل شيء على هواها. بحيث لا يظل له بالأصل صلة. بل يلتحق بمخيلة الصانع ليقيم هناك على حدود الوهم والحقيقة، ويشرئب بعنقه على الدوام إلى درب المجهول الذي يأخذه كما أخذ هرقل إلى حدائق «الهسبريد» بحثاً عن تفاحات «هسبريا» المحلاة باللآلئ والمصنوعة من الذهب الخالص، وهي حسب أساطير الإغريق أثمن الهدايا، وأغلاها... وهل هناك أغلى وأجمل من جنية تهوانا ومدينة نفصلها على هوان، ومخيلة مجنحة تجنبنا الخوض في مستنقعات هذا الواقع المر الضحل الذي لم يحصل على هذا الاسم المريب... «واقع» إلا حين سقط من عليائه ووقع محطماً من سماوات الأسطورة فتشظى حزناً وألماً وتفاهة بعد مغادرته لفضاء المخيلة الأسطورية التي تترفع فوق الصغائر، وتحاول تفسير رموز الكون بدهشة طفولية باهرة؟